النقد الذاتي للاستشراق

إعداد

د. عبد السلام إبراهيم السيد شرف الدين

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية – جامعة الأزهر

النقد الذاتي للاستشراق

عبدالسلام إبراهيم السيد شرف الدين

العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، المنوفية، مصر.

البريد الإلكتروني: abdelsalamsharaf.adv@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الاستشراق منهج من أبرز المناهج التي اعتمد عليها الغرب في صراعه مع الإسلام، نظرا لأنه يعد النافذة التي اعتمد عليها علماؤهم في تعريف مواطنيهم وشعوبهم بالإسلام، ومن ثم اتخذ الاستشراق أهميته في كونه صار أبرز الوسائل التي ينظر الإنسان الغربي من خلالها إلى الإسلام ويصوغ بها موقفه منه، وبالتالي صار الاستشراق هو البوصلة التي توجه فهم ووعي المواطن الغربي للإسلام

وفي ظل هذه الصورة القاتمة التي رسمها الاستشراق للإسلام تلوح في الأفق صورة هي إلى الجمال أقرب وإلى الحق أهدى وأقوم، أعنى الصورة الصحيحة للإسلام والتي هي بحق تعبر عنه هدفا وسلوكا وغاية، عقيدة وشريعة وأخلاقا، تلك الصورة رسمها بعض المستشرقين حين أجرى الله الحق على ألسنتهم وأقلامهم

ومن هنا تفتقت فكرة هذا البحث في ذهني أن أجمع من أمثال هذه الكتابات الحقة عن الإسلام التي كتبت بلسان المستشرقين وأقلامهم مما يعد من قبيل النقد الذاتي للاستشراق

وقد قمست هذا البحث إلى خمسة مباحث، فجاء المبحث الأول للحديث عن أهداف الاستشراق، وجاء المبحث الثاني للحديث عن التواصل الحضاري والنقد الذاتي للاستشراق، أما المبحث الثالث فعقدته للحديث عن الإسلام والعلم والنقد الذاتي للاستشراق، وجاء المبحث الرابع للحديث عن النقود الذاتية للاستشراق فيما يتعلق بالمجال العقدي ثم جاء المبحث الخامس والأخير لهذه الدراسة وكان موضوعه المجال التشريعي والنقد الذاتي للاستشراق.

الكلمات المفتاحية: الذاتي، النقد، الاستشراق، التواصل الحضاري، الإسلام، العقدي.

Self-criticism of Oriantalism

Abd Al-Salam Ibrahim Al-Sayyid Sharaf Al-Din.

Department of Doctrine and Philosophy. Faculty of Fundamentals of Religion and Islamic Call (Da'wa) in Menoufia - Shebin El-Kom. Al-Azhar University. Arab Republic of Egypt.

Email: abdelsalamsharaf.adv@azhar.edu.eg

Abstract:

Orientalism is one of the most prominent methods that the West relied on in its struggle with Islam since it is the window that the West relied on in introducing their citizens and peoples to Islam. Hence, Orientalism gained great importance as it became the most eminent means through which the western look at Islam and form his situation towards it. Thus, Orientalism became the compass that guides the understanding and awareness of the Western citizen of Islam. In the light of this dark picture depicted by orientalism for Islam, an image appears on the horizon that is closer to beauty and to the truth straight and correct; I mean the correct picture of Islam which truly expresses it as an objective, behavior and goal, doctrine, law and morals. That picture that some oriantalists depicted when God made their tongues utter and their pens write rightly. Hence, the idea of this research emerged in my mind to collect such true writings on Islam that were written by the orientalists' pens and tounges which is a self-criticism of Orientalism. I divided this research into five topics: The first topic came to talk about the goals of Orientalism. As for the second topic;it came to talk about civilizational communication and self-criticism for orientalism. As for the third topic, I conducted it to talk about Islam, science and self-criticism of Orientalism. Then the fourth topic came to talk about the subjective criticism of orientalism in relation to the doctrinal field. As for the fifth and final topic of this study: Its topic was the legislative field and the self-criticism of Orientalism.

Key words: Self, criticism, orientalism, civilizational communication, Islam, doctrinal.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. **أما بعد،،،،**

مما لا ريب فيه أن كل حضارة من الحضارات ليست بمنأى أو بمعزل عن الأخرى، إنما هي تتواصل وتتكامل فيما بينها عن طريق ما يسمى بالتأثير والتأثر، فكل حضارة أثرت في لا حقتها وتأثرت هي الأخرى بسابقتها

وهذا التأثير والتأثر يتفاوت في درجاته من حيث القوة والشدة بين كل الحضارات، لكن ثمة حضارتين من تلكم الحضارات الإنسانية كان التواصل بينهما قويا لدرجة أنه فاق – في هذه القوة والشدة – كل أنواع التواصل بين كل الحضارات، وأقصد بهاتين الحضارتين، الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فقد نشأ التواصل بينهما منذ نشأتهما بيد أن هذا التواصل لم يكن أحادي الجانب إنما كان تواصلا مشتركا بين كلا الحضارتين، وهذا التواصل أيضا لم يكن متفقا في الأهداف والغاية إنما كان مختلفا، فالتواصل من جانب الحضارة الإسلامية كان هدفه مستمدا من التراث العقدي الإسلامي، وفيه: أن الاختلاف والتنوع سنة إلهية وكونية غايته التعارف والالتقاء والاجتماع على الأهداف الإنسانية التي تحقق التقدم المنشود للبشرية جمعاء

وهذا ما عمدت إليه وتغيته الحضارة الإسلامية، ومن ثم فقد تواصلت – على هذا الأساس – الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية فأمدتها بما توصلت إليه حينذاك من اكتشافات علمية وقدمت إليها مناهجها التربوية والأخلاقية والبحثية وغير ذلك من الركائز التي اعتمدت عليها أوربا بعد ذلك في تشييد حضارتها

في المقابل كان التواصل من جانب الحضارة الغربية على النقيض تماما، فبينما أمدت الحضارة الإسلامية الغرب بما يكفل له تقدمه، إذا بالغرب يقف موقفا غريبا من الإسلام وحضارته فقد أسقط الغرب على الإسلام ما أسقطه هو على الدين الكنسي من اتهام بالجمود والتخلف والرجعية، وصارت هذه النظرة منذ نشأتها إلى لآن هي التي تشكل وتصيغ موقف الغرب من الإسلام، وصار هذا الموقف يترجم هذه النظرة بكل أبعادها، ورضي الغرب أن يكون موقفه المعلن من الإسلام هو موقف التحدي والحرب والعداء، وراح الغرب يعلن هذا الموقف في ظهور أحيانا وفي خفاء وتستر أحيان أخر.

وقد انتهج الغرب في صراعه مع الإسلام وحضارته عدة مناهج منها الاستعماري ومنها السياسي ومنها الاقتصادي ولعل أبرزها تأثيرا هو منهج "الاستشراق".

التمهيد

يعد الاستشراق أبرز المناهج المعلنة من الغرب في صراعه مع الإسلام لأنه هو الوسيلة التي بها يشكل الغرب وجدان الإنسان الغربي ويسطر من خلالها قناعته ويصوغ بها موقفه من الإسلام، وبالتالي صار الاستشراق هو البوصلة التي توجه فهم ووعي المواطن الغربي للإسلام.

وقد رضي الغرب بهذا المنهج كبديل أولا عن بعض مناهجه الأخرى التي استعملها ردحا من الزمن في صراعه للإسلام، وكبديل عن الإسلام في حد ذاته ثانيا.

ومن هنا نستطيع أن نفهم المعنى المغلوط عن الإسلام في أذهان الغربيين، وكذلك نستطيع أن نفسر سر الصورة القاتمة للإسلام في مخيلاتهم، وهذا يؤدي بنا إلى القول: أن الاستشراق هو سلاح اتخذه الغرب لمحاربة الإسلام.

وفي ظل هذه الصورة القاتمة التي رسمها الاستشراق للإسلام تلوح في الأفق صورة هي إلى الجمال أقرب وإلى الحق أهدى وأقوم، أعنى الصورة الصحيحة للإسلام والتي هي بحق تعبر عنه هدفا وسلوكا وغاية، عقيدة وشريعة وأخلاقا، تلك الصورة رسمها بعض المستشرقين حين أجرى الله الحق على ألسنتهم وأقلامهم فراحوا ينقدون ما كتبه أضرابهم من دعاة الزيف والضلال ويبينون وجه الحق للإسلام، فكان منهم من كتب عن العقيدة ومنهم من كتب عن الشريعة ومنهم من كتب عن الأخلاق ومنهم من كتب عن نبي الإسلام ومنهم من كتب عن كتاب الإسلام إلى غير ذلك مما حواه الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا.

ومن هنا تفتقت فكرة هذا البحث في ذهني أن أجمع من أمثال هذه الكتابات الحقة عن الإسلام التي كتبت بلسان المستشرقين وأقلامهم مما يعد من قبيل النقد الذاتي للاستشراق، حيث إن هؤلاء كانوا - ومنهم - من لا يزال – متحاملين على الإسلام، لكن الإسلام بما يملكه من أصول عقدية وتشريعية وأخلاقية ربانية المصدر، كل هذا أجبرهم على أن يقولوا كلمة حق معلنة وأن ينقدوا أنفسهم بأنفسهم.

وقبل أن أسترسل في بيان مفاصل هذا البحث من تمهيد ومباحث وخاتمة وغير ذلك مما هو من مكونات البحث العلمي، ارتأيت أن أستهل هذا البحث من خلال مقدمته ببيان تنويه لابد منه، إذ إن وروده قد يميط اللثام عن ارتياب ربما يقع القارئ الكريم فيه، ومن ثم فإني أحببت أن أبدأ به تجلية لحقيقة مهمة عونا للقارئ ودفعا لكل ظن أو شك.

أحب أن أنوه إلى أن كل عبارة وردت في هذا البحث يفهم منها أنها نقد للعقيدة المسيحية، فإني لم أسق هذه العبارات أو الفقرات لذلك، فهذا بعيد كل البعد عن موضوع البحث، إذ إن هذه العبارات في معظمها ليست إنشائية إنما هي عبارات إخبارية، فجلها منقولة عن آخرين، ونقلها لا يعني بحال من الأحوال إسقاطها على واقعنا المعاصر، ومن ثم فيجب أن تؤخذ هذه العبارات والفقرات على غير معناها الظاهر لأنها سيقت - في مواضعها من هذا البحث - فقط للتأريخ لفترة زمنية معينة أو التعبير عن حال هذه الفترة في تاريخ هذه العقيدة، عرفت هذه الفترة في الوسط العلمي باسم العصور المظلمة وفيها كان التسلط شديدا من رجال الدين المسيحي على كل من عداهم، حتى المسيحيون المخلصون لم يسلموا من هذا التسلط، ومما هو مقرر في الأوساط العلمية أن هذا التسلط كان وقعه شديد على الديانات الأخرى لاسيما الإسلام، والعبارات والفقرات الواردة بهذا البحث[1] التي توهم أنها سيقت لنقد العقيدة المسيحية ليست على إطلاقها إنما هي تعبر فقط عن تلك الحقبة الزمنية، كما أنها وردت في سياق الحديث عن الاستشراق الذي يمثل الموضوع الرئيس لهذا البحث، والقارئ الكريم يعلم – فضلا عن أهل التخصص – أن ثمة علاقة قوية بين الاستشراق والغرب والمسيحية، فالمتحدث في موضوع الاستشراق لا بد له من الحديث عن الغرب وكذا عن المسيحية، ومن ثم فإن الحديث هنا عن الاستشراق هو الأصل إنما الحديث عن المسيحية جاء عرضا ولم يكن أصلا، وإضافة لما سبق أحب أن أؤكد على أن الواقع المعاصر يشهد تعاونا وتكاملا وتسامحا بين أبناء الوطن الواحد وإن كانوا يختلفون في العقائد، لاسيما بيننا نحن المسلمين وبين إخواننا الأقباط، فالإسلام في مجالاته المتعددة، العقدية والتشريعية والأخلاقية، يحث على احترام العقائد، ومن ثم فإن المسلمين امتثالا لإسلامهم واستجابة لنداءاته المتكررة في هذا الشأن فإنهم يوقرون المسيح -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وأمه مريم البتول ويجلونهما إجلالا كريما ويكنون لهما في قلوبهم مكانة سامية، وهذه المكانة وذاك التوقير والإجلال اكتسبه المسلمون أولا من القرآن الكريم الذي جاءت فيه سورة كاملة باسم مريم -عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ-، كما أن القرآن تناول قصة المسيح عيسى -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وأمه في أكثر من موضع، فتحدث القرآن عن ميلاد أمه -عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ-، وكفالة زكريا -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لها، كما تحدث عن عبادتها في بيت المقدس وتناول قصة حملها بعيسى -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، وقصة وضعه ومعجزاته التي أيدهما الله بها، وعرض القرآن دعوته إلى عبادة الله، كل هذا غرس في نفوس المسلمين توقير المسيح وأمه وإجلالهما فضلا عن الإيمان بهما لأن الإيمان بهما جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلمين، كما أن احترام العقائد الذي جاء به الإسلام يؤدي بالمسلمين إلى احترام أصحابها والتعايش معهم،

(١) وهي قليلة وليست كثيرة وإنما كان لابد من هذا التنويه قطعا للظنون

وهذا كله من تعاليم الإسلام، وحتى لا يكون هذا الكلام[١] مرسلا لا دليل عليه ولا بينة تشهد له، عقدت في آخر هذا البحث مبحثا[٢] تحدثت فيه عن قيمة التسامح في الإسلام، وأبرزت فيه أن التسامح من أهم القيم التي جاء بها الإسلام وطالب أتباعه بتطبيقها وأوصاهم بها في كل زمان ومكان، وبهذا يكون الدين الإسلامي أبعد ما يكون عن العنف والتطرف والكراهية وغير ذلك من تلك التهم التي يحاول المغرضون إلصاقها بالإسلام وهو منها براء، وإني أحيل القارئ الكريم إلى هذا الحديث في موضعه المشار إليه، وكفى من القلادة ما أحاط بالعنق.

(١) أقصد هذا التنويه الذي أوردته

(٢) المبحث الخامس من هذا البحث

المبحث الأول
أهداف الاستشراق

الاستشراق له أهداف كثيرة يحاول الوصول إليها وتحقيقها من خلال دراسة التراث الإسلامي، وهذه الأهداف تتنوع ما بين دينية وعلمية وسياسية واقتصادية وتربوية وأخلاقية... إلخ

وإعمالا لمبدأ الإيجاز غير المخل سنحاول في هذا المبحث أن نقف على أهم الأهداف الاستشراقية، لأن الوقوف عليها جميعا سيخل بهذا المبدأ

أولا: الهدف الديني:

لعل الهدف الديني يأتي على رأس هذه الأهداف ويحتل المكان الأسمى عند المستشرقين، يقول الدكتور محمد خليفة " يعتبر الدافع الديني من أهم الدوافع التي وجهت المستشرقين لدراسة العقيدة الإسلامية "[١]

ويؤكد الدكتور محمد عليان على أن الهدف الديني احتل المكانة الأسمى عند المستشرقين، فيقول " كان الباعث الأول للاستشراق دينيا، إذ أدى التفوق العسكري والحضاري للمسلمين إلى تحول أعداد كبيرة من المسيحيين (النصارى) للإسلام، كما أن كثيرا ممن بقوا على نصرانيتهم أعجبوا في قرارة أنفسهم بالإسلام والمسلمين، مما حمل الرهبان على قيادة حركة لدراسة اللغة العربية وترجمة التراث الإسلامي بقصد تشويهه وحجب محاسنه عن الجماهير المسيحية الخاضعة لنفوذهم، ومن أجل ذلك أنشيء أول الأمر مركز لدراسة اللغة العربية في الفاتيكان كما أمر بإدخال اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى في مدارس الأديرة والكاتدرائيات وعمل أيضا على إنشاء كراسي لهذه اللغات في جامعات فرنسا وإيطاليا وغيرها"[٢]

نرى في هذا النص السابق دليلا على ما قدمنا له من أن الهدف الديني يأتي على رأس الأهداف التي يتغياها المستشرقون من حركتهم الاستشراقية، ويتبلور هذا الهدف في غيرة رجال الدين المسيحي على دينهم لما رأوا في الإسلام قوة زاحفة تستولي على القلوب، وإلى هذا الحد ليس هناك نذير خطر، لكن لما كانت النصرانية عند رجالها قد تحولت عن غايتها الروحية وشعائرها الأخلاقية إلى مجرد طقوس خاوية تجلب لهم مزيدا من المكاسب الدنيوية وتمكن لهم مزيدا من السيطرة على عقول أتباع هذه

---

(١) آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: د/محمد خليفة حسن أحمد، طـ: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٩٩٧م، صـ١١

(٢) أضواء على الاستشراق: د/محمد عبدالفتاح عليان، طـ: دار البحوث العلمية – الكويت، طـ سنة ١٤٠٠هـ، صـ٤٣

الديانة، هنا أصبح الإسلام أكبر خطر يهدد عروش هؤلاء، بما حواه من أصول عقدية وتشريعية وأخلاقية يقبلها العقل ويقرها الوجدان، وبالتالي أقبلت القلوب تهفوا عليه وتتهافت إليه رغبة في الدخول فيه، هنا أدرك رجال الدين النصراني خطر الإسلام على تلك المكانة الدينية التي صنعوها لأنفسهم ورأوا فيه – أي الإسلام – الخطر الذي سيزيل عروشهم ويقوض أركان ملكهم فقرروا محاربته بشتى الوسائل

وكان على رأس الوسائل التي استخدمها هؤلاء لمحاربة الإسلام (الاستشراق) ومن ثم أقبل المستشرقون على تعلم العلوم الإسلامية لاسيما علوم الآلة كاللغة العربية وآدابها حتى يتمكنوا من قراءة هذه العلوم وسبر أغوارها، ومن ثم وضع الخطط المناسبة التي تتلاءم مع أهدافهم وتحقق متغياهم.

نخلص مما سبق إلى أن الهدف الديني هو أهم أهداف المستشرقين في دراساتهم للتراث الإسلامي بصفة عامة، وإذا كان الأمر كذلك فحري بنا أن نستشرف بعض الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا المقام، ولعل أهمها: ما السبب في أن يكون الهدف الديني دون غيره من الأهداف هو الهدف الرئيس الذي يتغياه المستشرقون في دراستهم للتراث الإسلامي؟

إن الناظر في ثنايا النصوص السابقة يلحظ العلة في كون الهدف الديني يأتي على رأس الأهداف في الدراسات الاستشراقية.

إن الغرب يخشى من انتشار الإسلام وفي سبيل الحيلولة دون ذلك فقد فكر في محاربة الإسلام، لكن الحرب التي ابتدأها الغرب ضد الإسلام كانت ذات شقين:

الأول منها: حرب استباقية، تتمثل في الهجوم على الإسلام عن طريق إثارة الشبهات حوله في مجالاته المتعددة، عقيدة – شريعة – أخلاقا، في محاولة منهم لوقف انتشاره هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لتشكيك أبناء الإسلام في الإسلام

الثاني منها: حرب دفاعية، تتمثل في تحصين المجتمع الغربي ضد الإسلام، وذلك بتشويه صورته أمامهم وإظهاره بمظهر الدين المبتور الرجعي الذي يعارض التقدم والابتكار، وهم في سبيل ذلك لا يألون جهدا في إظهار أهله بمظهر الرجعيين المتخلفين وفي أحيان كثيرة بمظهر الأصوليين المعتدين، كل ذلك حتى يتم تحصين المواطن الغربي ضد الإسلام.

وفي هذا النوع من الحرب الدفاعية يقول د عبدالعظيم الديب: "إن الاستشراق يرمي من وراء ذلك إلى غايتين:

أولاهما: حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به "[1]، وهم في

(١) المنهج عند المستشرقين: د/عبدالعظيم الديب، بحث منشور في: حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بقطر، العدد: السابع، سنة ١٩٨٩م، صـ٣٣٨، وقد أوردنا في هذا الموضع الغاية الأولى من

سبيل ذلك يغلقون في وجه المواطن الغربي كافة الطرق والمنافذ الفكرية والوجدانية حتى يحول ذلك بينه وبين الإسلام حتى من محاولة التعرف عليه.

أما عن الجمع بين شقي الحرب -الاستباقية والدفاعية - التي أعلنها المسشترقون على الإسلام، أو بمعنى آخر الجمع بين الهدف الدفاعي والهدف الهجومي في هذا الحرب، كما تحلو التسمية لبعض الباحثين، ومنهم الدكتور حسن المعايرجي الذي تكلم عن هذه الحرب التي عزم الغرب على شنها ضد الإسلام تراثا وفكرا وحضارة، والتي ابتدأها إبان الترجمة المشوهة المنقوصة للقرآن الكريم إلى اللاتينية، وقد كانت هذه الترجمة على حد قوله "نقطة البداية لهجوم فكري على الإسلام استمر منذ كتابتها حتى عصرنا الحاضر"[١] وعن قوة وخطورة وتأثير هذه الحرب أو هذا الهجوم يقول "وكان هذا الهجوم ومازال هو الأكثر خطرا وتأثيرا من الحروب العسكرية "[٢]

مما سبق بيانه نخلص إلى أن الهدف الديني يأتي على قمة الأهداف التي يسعى الاستشراق لتحقيقها، وإذا كان الأمر كذلك فيمكننا من خلال هذا الفهم والاستنتاج أن نبرز أهم المعالم لهذا الهدف الديني والتي يمكن أن نستشرفها في النقاط التالية:

أولا: إضعاف المد الإسلامي: وهذا واضح تماما بل يمثل حجر الزاوية بالنسبة لظاهرة الاستشراق عموما، بل إننا لا نبالغ حين نقول: أن الاسشتراق إنما نشأ في محاولة منه لإضعاف المد الإسلامي لما رأى من غلبة الإسلام الظاهرة والباطنة، الظاهرة المتمثلة في اتساع رقعته على ظهر هذا الكوكب، والباطنة المتمثلة في تمكنه من القلوب، فأراد الاستشراق أن يوقف هذا المد لأنه رأى فيه ما يمثل خطرا عليه وعلى ديانته، يحدثنا عن هذا المَعلَم المستشرق رودي بارت حين يبين لنا الهدف وراء الدراسات العربية والإسلامية من جانب المستشرقين لتراث الشرق الإسلامي، يقول " وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر وفي القرون التالية[٣] هو التبشير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي"[٤] فقد رأى الغرب أرضه وشعبه وقد استولى الإسلام عليهم

الغايتين اللتين تحدث عنهما الدكتور عبدالعظيم، وقد ارتأينا أن الغاية الثانية تكون أكثر مناسبة في موضع آخر سنأتي على ذكرها فيه.

(١) المحرفون للكلم، الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم وتأثيرها على الترجمات باللغات الأوربية: د/حسن المعايرجي، بحث منشور في: مجلة المسلم المعاصر، مجلد:١٢، العدد:٤٨، يونيو عام ١٩٨٦م، صـ٥٤

(٢) المصدر السابق، صـ٥٤

(٣) يشير إلى الفترة لزمنية التي ارتأها كبداية زمنية للاستشراق بوصفه علما والتي تبدأ - من وجهة نظره - في القرن الثاني عشر

(٤) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه: رودي

فأراد من خلال الاستشراق أن يوقف هذا المد، وهذه النظرة وذاك الاتجاه ينقله الدكتور عبدالعظيم الديب قولا مقولا لبعض الغربيين من المستشرقين وغيرهم، فيقول " فهذا هو المستشرق الأمريكي (روبرت بين) يقول في مقدمة كتابه (السيف المقدس): إن لدينا أسبابا قوية لدراسة العرب والتعرف إلى طريقتهم، فقد غزوا الدنيا كلها من قبل، وقد يفعلونها مرة ثانية، إن النار التي أشعلها محمد لا تزال تشتعل بقوة، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء - ويتابع الدكتور عبدالعظيم هذا النقل فيقول - وبهذه الصراحة أو أشد منها - إذا كان هناك أشد منها - يأتي قول الأمير (كايتاني) ذلك الأمير الإيطالي الذي جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل لترتاد مناطق الفتح الإسلامي وترسمها جغرافيا وطبوغرافيا، وجمع كل الدوريات والأخبار الورادة عن حركة الفتح في اللغات القديمة واستخلص تاريخ الفتح في تسعة مجلدات ضخمة بعنوان (حوليات الإسلام) هذه: إنه إنما يريد بهذا العمل أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض، لا يزالون حتى اليوم يؤمنون برسالة محمد ويدينون به نبيا ورسولا"[(١)]

فالغرب ممثلا في الاستشراق والاستشراق ممثلا في الغرب يريد أن يحافظ على الأوربيين مسيحيين فقط، ولن يتأتى له ذلك إلا من خلال تشويه صورة الإسلام في عيون الغربيين.

ثانيا: محاربة الإسلام: ولعل هذا المَعلم من أهم معالم الهدف الديني للاستشراق، ولتمحيص الكلام في هذا المعلم لابد من الإشارة إلى المحاور التي سار عليها الاستشراق لتحقيق هذا المعلم ومن ثم لتحقيق هدفهم الديني، وعن أهم هذه المحاور فتتمثل في الآتي:

- **الطعن في الإسلام وفي مصدريه الرئيسين القرآن والسنة:**

وهذا من أهم المحاور التي يعمل الاستشراق عليها، وهو هدف أصيل من أهداف الاستشراق وغاية تتغياها الدراسات الاستشراقية،

- **التشكيك في صحة رسالة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:**

من أهم المحاور التي مثلت دورا رئيسا للمستشرقين فيما يخص حربهم للإسلام، المحور الخاص برسالة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكونهم لا يفتأؤون يشككون في صحة هذه الرسالة، ولا يخفى على أحد خبث غرضهم في ذلك من محاولة هدم الإسلام، عن

بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، طـ: المركز القومي للترجمة - القاهرة، طـ سنة ٢٠١١م، صـ١٤،١٥

(١) الاستشراق في الميزان: د/ عبدالعظيم الديب، طـ: دار دوِن للنشر والتوزيع - القاهرة، بدون تاريخ، صـ٦٤،٥٦

طريق التشكيك في عقائده وشرائعه وقيمه التي جاءت عن طريق الإعلام النبوي فضلا عن التشكيك أصالة في المصدر الثاني من مصادر التشريع وهي السنة النبوية، الأمر الذي يترتب عليه إنكار الدين جملة وتفصيلا.

يتحدث د مصطفى السباعي عن الأهداف التي يسعى الاستشراق لتحقيقها ويذكر أن من جملتها ما نحن بصدده - التشكيك في صحة رسالة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويذكر تحت هذا الهدف ما نصه "فجمهورهم – يقصد جمهور المستشرقين – ينكر أن يكون الرسول نبيا موحى إليه من عند الله – جل شانه – ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحيانا وبخاصة عائشة أم المؤمنين -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى(صرع) كان ينتاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حينا بعد حين، ومنهم من يرجعه إلى تخيلات كانت تملأ ذهن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ومنهم من يفسرها بمرض نفسي، وهكذا، كأن الله لم يرسل نبيا قبله حتى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي "[(١)]

- **تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الغرب:**

هذا غرض أصيل من أغراض الدراسات الاستشراقية، فالاستشراق يهدف من خلال دراساته أن يدافع عن الحضارة الغربية بكل ما تستوعبه هذه الحضارة من دين وقيم وثقافة وفكر وهوية أيا كان نوع هذه الحضارة وما تشتمل عليه، وفي سبيل ذلك يرى الغرب أن الشيء الوحيد الذي يهدد وجود هذه الحضارة المادية وما اشتملت عليه من عناصر معرفية وفكرية وثقافية هو الإسلام فعمدوا إلى تشويه صورته أمام المواطن الغربي بهدف تحصينه منه وإبعاده عنه، وحول هذا الأثر الفكري الاستشراقي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وفي سبيل هذا الغرض وظف المستشرقون هذه الدراسات الفكرية الاستشراقية وجعلوا جزءا كبيرا منها يقوم على تشويه صورة الإسلام، وكان لهذا أثره الواضح، وحول هذا المجهود الاستشراقي وأثره في تشويه صورة الإسلام والمسلمين يقول الدكتور محمد خليفة " ولا يخفى أن أحد أهداف الاستشراق الأساسية حجب المعرفة الصحيحة عن الإسلام، حتى لا يؤثر هذا الدين الكامل في أهل الغرب، وهي حرب فكرية موجهة لمنع انتشار الإسلام في العالم الغربي والتعتيم على المثقف الغربي وإعطائه معلومات خاطئة ومضللة عن الإسلام وتنفير الغرب منه كدين وحضارة "[(٢)]

وحتى لا يظن أحد أن الحديث عن تعمد الغرب أو بالأحرى تعمد الدراسات الاستشراقية تشويه صورة الإسلام، مجرد كلام تنظيري قد يكون مجافيا للواقع، فإن

---

(١)الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: د/مصطفى السباعي، طـ: دار الوراق للنشر والتوزيع – عمان، بدون تاريخ، صـ٢٥،٢٦

(٢)آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: د/محمد خليفة: صـ٢٠

أحد العلماء يعزز حديثه في هذا المقام بما رآه رأي العين والمشاهدة من خلال بعض رحلاته العلمية إلى بلاد أوربا، سجل فيها ما وقعت عليه عيناه وما لاحظه من صورة مبتورة ومشوهة للإسلام في الوسط الغربي، فهناك مفاهيم معينة هي السائدة لدى التصور الغربي عن الإسلام، وقد أضحت هذه المفاهيم راسخة في أذهانهم وتصوراتهم بحيث شكلت انطباع الغرب عن الإسلام، يقول أ/ رجب مرسي البنا، وهو يوثق ما خلص إليه في تلك الرحلات " أتيحت لي فرصة نادرة في مصاحبة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر في رحلة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٥م، وكان وقتها يشغل منصب مفتي الديار المصرية، ثم في ثلاث رحلات أخرى إلى الهند، وباكستان عام ١٩٩٦م، وألمانيا في عام ١٩٩٧م، كما قمت بزيارة مكثفة إلى بريطانيا عام ١٩٩٧م، وفي هذه الرحلات لمست عن قرب كيف يتعرض الإسلام لحملة تشويه كبيرة في كل أنحاء العالم حتى في داخل العالم الإسلامي ذاته، في الغرب كانت صورة الإسلام إنه الدين الذي يدعو إلى القتل والاغتيال تحت شعار (الجهاد) وإنه الدين الذي يرفض التعايش مع (الآخر) فهو إما قاتل أو مقتول، وتكتمل الصورة بما أضيف إليها في الغرب بأن الإسلام مرتبط بالهمجية في التفكير والسلوك، ومعاداة التقدم العلمي في أي مجال، وإنه دين الجمود والارتباط بالماضي، والاستهانة بالحاضر، وتجاهل المستقبل "[(١)]

هذه هي المفاهيم الغربية للإسلام والتصورات السائدة لدى قطاع كبير وعريض منهم، ومما لا شك فيه أن جزءا كبيرا من هذا التصور ساهمت فيه بشكل رئيس الدراسات الاستشراقية، هذا إن لم يقع عليها العبء الكامل في إرساء ذلكم الانطباع.

- **التغريب والغزو الفكري:**

الاستشراق حركة لها أهداف تسعى لتحصيلها عن طريق بث المغالطات الفكرية حول الاسلام بصفة عامة وهذا منهج دأبت عليه تلك الحركة بهدف الطعن في الإسلام بغية تشويه صورته أمام غير المسلمين وخلخلة عقيدته في نفوس المسلمين، ومن أهم المناهج التي اتبعها المستشرقون في سبيل الوصول إلى هذا الغرض، تغريب المسلمين عن دينهم وثقافتهم بوسائل مختلفة لعل أهمها الغزو الفكري المتواصل لحقول الثقافة الإسلامية وبث سمومهم ومفترياتهم في هذه الحقول بهدف سلب المسلم عن هويته وثقافته، يقول د محمد خليفة " يمثل الفكر الاستشراقي في معظمه حركة فكرية مضادة للإسلام والمسلمين، وقد ترك هذا الفكر آثارا سلبية كثيرة في الفكر الإسلامي تظهر بصماتها واضحة في المجتمعات الإسلامية وفي أنشطتها المختلفة، ويعتبر الاستشراق مسؤولا مسؤولية مباشرة عن عملية الغزو الفكري المتواصل للثقافة الإسلامية إذ لا يكاد يخلو مجال من مجالات الحياة الإسلامية من أثر للفكر الاستشراقي، وعن طريق

(١) الغرب والإسلام: رجب مرسي البنا، طـ: دار المعارف – القاهرة، طـ سنة ١٩٩٧م، صـ٥

الاستشراق يحاول الغرب المحافظة على مكاسبه الثقافية التي جناها في المرحلة الاستعمارية وتوسيع دائرة نفوذه الثقافي وتوجيه الحياة الشرقية عامة والإسلامية خاصة وجهة غربية... فالاستشراق أهدافه غربية خالصة ونتائجه بالنسبة للمجتمع الإسلامي نتائج خطيرة تسعى إلى محو الصفة الإسلامية وطبع المجتمع الإسلامي بطابع الثاقفة الغربية "[1]

ومما سبق يتضح أن ثمة علاقة وطيدة بين الغزو العسكري والغزو الفكري وأن كلاهما يشكلان حجر الزاوية في العلاقة التي تحكم الغرب تجاه الشرق، فعلاقة الغرب بالشرق إما علاقة متمثلة في غزو عسكري وإما علاقة متمثلة في غزو فكري

ففي مرحلة زمنية وتاريخية معينة استطاع الغرب أن يغزو الإسلام أرضا وشعوبا وقد تم له ذلك بادئ ذي بدء بالغزو العسكري، ثم أحكم قبضته على الإسلام فكرا وثقافة وعروبة عن طريق الغزو الفكري، ولا نعلم لماذا لا يحاول الغرب أن يغير نمط هذه العلاقة ويبحث عن إقامة علاقة مع الشرق تقوم على التفاهم والتعاون يعززها روح البحث العلمي والفكر الجاد الهادف والثقافة المتبادلة التي تسهم هنا وهناك في المجالات التنموية المختلفة مما يتسنى للجميع شرقا وغربا أن يهنأ بحياة لا يعكر صفوها شيء.

ثانيا: الهدف العلمي:

يعتبر الهدف العلمي من أهم الأهداف التي يسعى الاستشراق لتحقيقها، وسنحاول في هذه الجزئية مناقشة هذه الهدف وما يمثله من أهمية بالنسبة لظاهرة الاستشراق

إن كل حضارة من الحضارات ترتبط بما قبلها وما بعدها عن طريق ما يسمى بالتأثير والتأثر، وقد كانت هناك نهضة حضارية لأوربا ولم تكن أوربا لتعرف طريقا لهذه الحضارة دون أن تستفيد من حضارة الإسلام بل وتقيم دعائم حضارتها على مرتكزات الحضارة الإسلامية، وهذا ما فعلته أوربا، فقد عمدت إلى الحضارة الإسلامية مستلهمة من تراث الإسلام لغة وفكرا وثقافة التقدم الذي تبغيه، فانكبت على تراث الإسلام ترجمة ودراسة وبحثا وتطبيقا حتى نجحوا في تشييد دعائم حضارتهم

فانفتاح الغرب على الشرق الإسلامي من الناحية العلمية والعكوف على تراثه في مختلف المجالات والفروع العلمية دراسة وبحثا لم يكن بقصد الرفاهية العلمية إنما كان القصد الأصيل البحث عن الرقي الحضاري والتقدم العلمي، وبناء على هذا الهدف اندفع الغرب إلى دراسة علوم الشرق وآدابه في كافة الفروع العلمية، والعمل الجاد على الاستفادة من هذه العلوم ونقلها إلى الغرب حتى يتسنى لهم بناء حضارة علمية تقدمية كتلك التي بناها المسلمون لما برعوا في العلوم والمعارف، ومن ثم تيقن هؤلاء أنهم لن يستطيعوا بحال من الأحوال تشييد حضارة كحضارة المسلمين إلا إذا أخذوا بما أخذ به

(١) آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: د/محمد خليفة، صـ٩ بتصرف بسيط

المسلمون من تلك العلوم والمعارف، ومن ثم كان انكبابهم على تراث المسلمين العلمي والمعرفي والحضاري وبخاصة إبان اتصالهم بالمسلمين في تلك الحواضر التي شهدت الوجود الإسلامي كبلاد الأندلس، وقد شهدت هذه الحاضرة - كغيرها - حضارة علمية ومعرفية مزدهرة، فتعلق الغرب بها وأحبوا أن يكون لهم مثيلها فكان الاتصال بالمسلمين والعكوف على تراثهم العلمي والمعرفي والحضاري

وقد كان هذا الاتصال فتحا لهم، فحين فتح المسلمون الأندلس واستقروا بها ردحا طويلا من الزمن وكانت قد شهدت هذه البقعة المكانية في هذه الحقبة الزمنية نهضة علمية وحضارية على أيدي المسلمين، مكنهم من إقامتها ما يملكونه من مفاتيح علمية وحضارية اكتسبوها من دينهم، وقد رغب الغرب في الاتصال بهذه الحضارة لعلهم يصيبون منها بعض المدنية والرقي، وهي العناصر التي كانت مفقودة عندهم بسب الانغلاق الذي كان يعمهم على كافة المستويات وفي مختلف المجالات، يقول أحد الباحثين " لما وصل المسلمون إلى الأندلس وبدأت أوربا ترسل أبنائها لتعلم في مدارس المسلمين، بعث هذا الفتح يقظة لأوربا حضاريا وفتح للغرب آفاقا جديدة للتقدم والرقي، وقد كان حب الاستفادة من علوم العرب وتفهم حقيقة دينهم، باعثا لدراسة شاملة للإسلام، وكان علماء أوربا يحاولون الأخذ والاستفادة مما أنجزه العرب من اكتشافات جديدة وتجارب علمية، إذاً فقد اهتموا بأمرين: قراءة الإسلام، والغوص في علومهم المكتشفة، إذ أدرك الغرب خلال الحروب الصليبية مع الشرق أنه يتفوق عليه فكريا وحضاريا واقتصاديا، فإذا أراد أن يتقدم ويتحرر، فلابد أن يسير في الطريق الذي سارت فيه شعوب الشرق قبله، ولذلك شرع في إنشاء المدارس والمعاهد والمراكز في تعلم الحضارة العربية التي كانت من أقوى البواعث لنهضة المسلمين العلمية والفكرية "[١]

وحري بنا - في هذا المقام - أن نذكر أن موقف الغرب من الشرق ودينه خصوصا وحضارته عموما، تقلب من طور إلى طور، فهو في بدايته كان تصديا لتوسع الإسلام الذي غزا القلوب والعقول والأصقاع والأمصار، ثم شعر هؤلاء بالخطر نتيجة هذا الانتشار فراحوا يقاومون هذا التوسع، ثم تحول هذا الطور إلى طور آخر هو أشد من سابقه تمثل في محاولة وقف التيار الإسلامي عن طريق القضاء عليه من داخله فعكفوا على التراث الإسلامي بحثا ودراسة وفهما لسيكلوجية النفس المسلمة في محاولة منهم للقضاء عليه، ولعل هذا يبرز أن الهدف العلمي للاستشراق لم يكن هدفا خالصا ولم تكن النزعة العلمية لدى المستشرقين تجاه الشرق وعلومه وحضارته نزعة تجريدية إنما كانت نزعة يشوبها تلك الأغراض الدفينة بل وتملؤها، تتمثل هذه الأغراض - أو

(١) الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية: بوزقاو مريم، رسالة دكتوراه - كلية الآداب واللغات، جامعة جيلالي اليابس - الجزائر، ٢٠١٩م، صـ٥٣،٥٤

بعضها - فيما قاله أ. أنور الجندي "تحسين وسائل التبشير وتجنب الثغرات ومعرفة الجوانب التي يستطيع أن يثير الشبهات منها في وجه المسلمين"[١] ثم يدلل أ. أنور الجندي على هذه الأغراض من خلال نص يورده لأحد المستشرقين يعبر به عما جاش في صدور هؤلاء وبدا، فيقول "وقد صور هذا المعنى في وضوح وصراحة كاملين، المستشرق(هومان استنجل) في كتابه (عقائد الإسلام) حيث يقول: إننا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الإسلامية وفهمنا لنفسية المسلم المتدين، وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما يستخدمه من أوله حتى اليوم، وحتى نبني من جديد دفاعا جديدا عن العقيدة المسيحية، دفاعا يضع في حسابه روح الإسلام والتطور الفكري للمسلمين فيما يتعلق بعائدهم[٢] خلال ما يزيد على ألف عام، وقد جرى هذا الاتجاه في ظل الخطة الذي عمل الاستشراق لها منذ وقت بعيد، وهي أن يضع لكل مسألة أو قضية أو معضلة إجابة مستمدة من محاولته المتعمدة لتغيير مجرى الفكر الإسلامي وإخراجه من هدفه الحقيقي وغايته الأساسية "[٣]

ومن ثم نستطيع القول أن الحركة العلمية التي قام بها الغرب تجاه الشرق الإسلامي كانت ذات شقين:

الأول: تمثل في التعرف على مفاتيح بناء حضارة خاصة بهم، وقد ملوا العيش في كنف العصور الوسطى المظلمة روحيا وماديا وفكريا وعلميا وثقافيا، ولم يكن ثمة طريق لهذه المفاتيح غير طريق الحضارة الإسلامية.

الثاني: التعرف عن قرب على التراث الإسلامي بغية النيل منه، ومعرفة الجوانب التي يستطيعون من خلالها إثارة الشبهات حول الإسلام.

التأثيرات الاستشراقية في المجال العلمي:

الاستشراق حين جعل العلم هدفا من أهدافه ولم يكن هذا الهدف خالصا لذاته إنما – كما مر – من أجل الوقوف على الجوانب التي يستطيعون من خلالها إثارة الشبهات، فقد كان لولوج المستشرقين إلى التراث العلمي الإسلامي بعض التأثيرات، ومن أبرز هذه التأثيرات الاستشراقية في المجال العلمي، هو ذلك الاهتمام من جانب المستشرقين في دراساتهم المتعلقة بالعلوم الإسلامية بإبداء العناية والاهتمام بالدراسات الصوفية[٤] وبخاصة ما يتعلق منها

(١) مقدمات العلوم والمناهج: أ/أنور الجندي، طـ: دار الأنصار – القاهرة، طـ سنة ١٩٨٢م، جـ٥، صـ١٣٩

(٢) هكذا وردت في النص، ولعل الصواب: بعقائدهم

(٣) مقدمات العلوم والمناهج: أ/أنور الجندي، جـ٥، صـ١٣٩

(٤) نحن هنا لا نريد أن نصادر على التصوف الفلسفي بصفة عامة أو أن نصدر حكما بالإيجاب أو السلب على هذا التراث الضخم، فقد كانت هناك دراسات عربية إسلامية لمؤلفين ينتمون إلى =

بالجانب الفلسفي الذي في بعض نظرياته يبتعد عن روح الإسلام وتعاليمه الصافية السامية، وقد مثل هذا النوع من التصوف مصدر جذب لكثير من المستشرقين، وكان هذا الحقل المعرفي موردا لكثير من الدراسات الاستشراقية التي عنيت به، يقول أحد الباحثين "جذب التصوف إليه اهتمام المستشرقين، فتعددت دراساتهم وأبحاثهم حوله، وأثارت دهشتهم وولعهم الشخصيات المشتهرة في مجاله مثل رابعة العدوية، والحسن البصري، وأبوالقاسم الجنيد بن محمد، وأبوحامد الغزالي، ومحي الدين بن عربي، والحسين بن منصور الحلاج، وشهاب الدين السهروردي، ونذكر من هؤلاء المستشرقين: لويس ماسينيون في دراسته عن الحلاج، وروجيه إرنالديز في كتابه(رسل ثلاثة لا واحد) وجيب هاملتون في كتابه (دراسات في حضارة الإسلام) ورينولد نيكلسون في كتابه (تراث الإسلام) وآسين بلاسيوس في دراسته لشخصيتي ابن عربي وأبي حامد الغزالي، وأجناس جولد تسيهر في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) وآدم ميتز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ودي بور في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) وجيرالد ديركس في دراسته (الصليب والهلال محاورة في العقيدة بين المسيحية والإسلام)"[(١)]

وهذا النص يؤكد ما سبق بيانه من أن الحقل المعرفي المتمثل في التصوف عامة والفلسفي بصفة خاصة كان محل اهتمام من كثير من المستشرقين وقد أسفر هذا الاهتمام في إنتاج كثير من الدراسات المتعلقة بهذا الحقل المعرفي، بيد أننا – في هذا المقام – لا نريد أن نغفل أن التوجه العام الذي كان يحكم المستشرقين في دراساتهم عن الشرق الإسلامي كان أيضا يحكمهم في دراساتهم في هذا الحقل المعرفي(التصوف)

ولعلنا نربط هذا بما ورد من أسماء بعض المستشرقين في النص السابق ومنهم: لويس ماسينيون، الذي كان شغوفا إلى حد كبير بدراسة التصوف وكان له الكثير من الدراسات حول هذا الحقل المعرفي، بل إنه أنفق معظم عمره وكثيرا من جهده في دراسة شخصية شهيرة في حقل التصوف الفلسفي وهي شخصية الحلاج، حتى أصبح من المشهور عن هذا المستشرق أنه أضحى صديقا للحلاج، وهذا من فرط العناية الدراسية به، أما لو بحثنا عن الغرض الذي من أجله أنفق هذا المستشرق هذا الوقت

الثقافة الإسلامية فكرا وهوية وقد ناقشوا الكثير من نظريات التصوف الفلسفي وقد كانت لهم تأويلات مقبولة ومرضية فيما يتعلق بهذه النظريات، إنما الحديث هنا عن بعض النظريات في هذا الحقل الصوفي التي تستعصي على التأويل المقبول، وأيضا على تلك الدراسات الاستشراقية التي عنيت بمثل هذه النظريات وأرادت أن تكرس فهما معينا وتوجها محددا من خلال تلك الدراسات، تستعين به على إطَراح الأفكار التي تروج لها في الوسط الإسلامي

(١) موقف المستشرقين من التصوف الإسلامي: د/عبدالرحمن تركي، بحث منشور في: مجلة دراسات استشراقية، العدد: السابع عشر، سنة ٢٠١٩م، صـ٢٥،٢٦

وهذا الجهد في العكوف على حقل معرفي بعينه أو على دراسة شخصية بعينها، فربما يكون كلام الدكتور عبدالرحمن بدوي رائدا لنا إلى الإجابة عن هذا الاستفسار، يقول في معرض حديثه عن لويس ماسينيون مبرزا اهتمامه بنوع معين من الفروع العلمية في التراث الإسلامي " وتوفر - أي ماسينيون - على دراسة الشيعة بكل تطوراتها وفروعها، وخصوصا المغالية منها كالقرامطة والنصيرية والإسماعيلية، لأنه كانت تستهويه المذاهب المستورة والحركات السرية، الروحية والسياسية في تاريخ الإسلام، فضلا عن ارتباطها في بعض الأحيان بصاحبه الذي رافقه طول حياته، أعني الحلاج "[(١)]

وإذا كان هذا النص قد أشار إشارة واضحة إلى الغرض الذي من أجله توفر المستشرقون على دراسة التصوف بصفة عامة والفلسفي منه بصفة خاصة، فهناك باحثون آخرون كانوا أكثر جرأة في التصريح بهذا الغرض، ومن هؤلاء باحثين قالا في بحث لهما " يمكن القول: أن حركة التبشير اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن اسودت صفحتها وكرهها الناس ونفروا من المتصلين بها، وبعد أن كشفت الأحداث أعمالها المهينة، ومن هنا خلعت حركة التبشير ثيابها لتلبس ثياب الاستشراق ولتختفي خلف ستاره، فالاستشراق عندما يدرس التراث الإسلامي ويتعرض للمذاهب الفكرية والفلسفية، وآراء الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وماشابه، ويركز على بعض الشخصيات من أمثال الحلاج وأبونواس وبشار وابن عربي وغيرهم، وعلى الروايات الإسرائيلية المشككة وأخبار القصاصين والأمور التي تتقاطع مع الإسلام الأصيل، ويقدمها على أنها حقائق تاريخية، فهو إنما يقدم حججا وخدمات كبيرة للتبشير والمبشرين، بل إنه يختصر عليهم المسافة، ويكفيهم مؤونة تشويه الإسلام، وتزيين المسيحية، بتقديمه هذه الدراسات التي توظف لإثارة الشبهات حول الإسلام، وإضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس معتنقيها "[(٢)]

مما سبق يتضح لنا أن معظم الدراسات العلمية للاستشراق لم تخلو من هدف أصيل تمحورت حوله تلك الدراسات، يتجلى هذا الهدف في:

أن الاستشراق كان يولي عناية واضحة في هذه الدراسات والأبحاث العلمية بالفرق الضالة والمنحرفة كالباطنية والروافض والإسماعيلية وغيرها من الفرق المغالية التي لا تمثل الإسلام تمثيلا صحيحا

وقد صدَّر الاستشراق هذه الدراسات وما انطوت عليه من مغالطات ومغالاة إلى الغرب يوهمونهم بذلك أن هذا هو الإسلام، وبهذا يسهم الاستشراق اسهاما مباشرا في

(١) موسوعة المستشرقين: د/عبدالرحمن بدوي، طـ: دار العلم للملايين - بيروت، طـ الثالثة سنة ١٩٩٣م، صـ٥٢٩

(٢) الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية لقاء الاستشراق والتبشير: د/جواد كاظم النصر الله، د/شهيد كريم الكعبي، بحث منشور في: مجلة دراسات استشراقية، العدد: الرابع، سنة ٢٠١٥م، صـ١١٤

صياغة التصور الغربي للإسلام والمسلمين

دوافع الهجمة الاستشراقية:

من خلال ما سبق بيانه في الدافع الديني والدافع العلمي لظاهرة الاستشراق، نخلص إلى أن أهم الأهداف والغايات التي تسعى لها الظاهرة الاستشراقية كلها تدور حول الدين من حيث محاولتهم إزاحة الدين من على الساحة وإيجاد البديل الذي يتوافق مع أغراضهم.

هذا عن الهدف والغاية الاستشراقية أما إذا توقفنا أمام هذا الهجوم محاولين تفسيره وتلمس الدوافع التي كانت وراء ظاهرة الاستشراق وما حملت من أهداف دينية وعلمية واقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها من كل هذه الأهداف التى تسعى الظاهرة لتحقيقها على أرض الواقع.

إذا رحنا نلتمس هذه الدوافع، فإن بيانها قد تكفل به السادة العلماء القائمون على موسوعة بيان الإسلام، إذ بينوا من خلال تلك الموسوعة العلمية أن الدافع وراء الهجوم على الإسلام من جانب المستشرقين، يتلخص في " دافعين: **دافع نفسي:** وهو تزييف الحقائق وتحريفها تعبيرا عن الإخفاق والعجز عن مواجهتها، فالعجز عن مواجهة الخصم يتحول - في الأعم الأغلب - إلى الافتراء عليه، كما أن التلبس بالصفات السلبية دافع لوصف الآخرين بها درءا للاتهام، وهو ما يعرف عند علماء النفس بـ (الإسقاط) حيث إن الإسقاط حيلة من الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها الفرد للتخلص من تأثير التوتر الناشئ في داخله، ذلك أن الغلبة إنما تكون للفكر الأقوى، والإسلام - كما يشهد الواقع - عقيدة وأخلاقا هو الأقوى، فقوته ليست من قوة أتباعه كما في العقائد الأخرى، ولكن قوته ذاتية تتأتى من داخله، لأنه الحق، لأنه الخير، لأنه السلام والأمن، لأنه الصلة الحقيقية التي لم تتعرض لزيف أو تخريف أو تشويه، ومن هنا كان إخفاق الغرب على المستوى الفكري والمعرفي - على الرغم من تفوقه سياسيا واقتصاديا وعسكريا - دافعا إلى الخروج عن العقلانية والحوار المنصف، واللجوء إلى القوة وإلى التشويه والإفساد ظلما وعدوانا. **دافع معرفي:** وهو إخفاق الغرب في مواجهة الإسلام فكريا على الرغم من هزيمة المسلمين سياسيا واقتصاديا وعسكريا في الوقت المعاصر، ولا يزال الغرب حتى الآن يمارس فكرة إقصاء ونبذ الآخر، بمواصلة الطعن في القرآن وفي نبوة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، في الوقت نفسه ينعت الإسلام بأنه هو الذي يمارس إقصاء الآخر "[1]

(١) موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات، القسم الأول - القرآن الكريم، إعداد: نخبة من كبار العلماء، طـ: دار نهضة مصر - القاهرة، طـ الأولى سنة ٢٠١٢م، جـ١، صـ٤٦،٤٧، وانظر ورود نفس هذه الدوافع في: جـ٢، صـ١٠،١١

المبحث الثاني
التواصل الحضاري والنقد الذاتي للاستشراق

النقد الذاتي للاستشراق لا يمثل الموقف الحقيقي لظاهرة الاستشراق بل إنه بمثابة الاستثناء للقاعدة أما القاعدة الرئيسة للظاهرة والتي انطلق منها المستشرقون في دراساتهم الاستشراقية هي ما أمطنا اللثام عنه في المبحث الأول من الكيد للدين من خلال تشويهه وإثارة الشبهات حوله، وقد رأينا – فيما مر – كيف تبارى المستشرقون في إسقاط أحكام مزيفة على الإسلام عقيدة وشريعة، والإسلام براء من كل هذا، وهم في ذلك مدفوعون ومن ورائهم بمئات الملايين من الدولارات مستخدمين في سبيل الوصول إلى متغياهم الأساليب الماكرة الملتوية من إثارة الشبهات، مستغلين جهل قطاع كبير من أوربا بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا.

أما نقد هذه الشبهات والطعون فإنه يمثل استثناء للقاعدة العامة لظاهرة الاستشراق.

وبناءً عليه فإن هذا المبحث وما يليه من مباحث ستلقي الضوء على بعض الاستثناءات لهذه القاعدة، أي ستقوم بعرض بعض النقود الذاتية التي أدلى بها بعض المستشرقين لبعض الشبهات والتشويهات التي قام بها أترابهم وأقرانهم من المستشرقين ومن أساتذتهم أو زملائهم أو تلاميذهم، وربما هم الذين أثاروها في وقت من الأوقات ثم رجعوا عنها في وقت آخر.

أما فيما يتعلق بالمسألة محل الكلام في هذا المبحث، أعني: قضية التواصل الحضاري، فقد أحببت أن أبدأ بقضية الحضارة لأنها تمثل نقطة انطلاق حقيقية لمعرفة الحضارتين الإسلامية والغربية، ومدى التواصل بينهما، وموقف كل منهما من الأخرى، وأيهما استفاد من الآخر، وأيهما كانت صاحبة قصب السبق إلى العلوم والمعارف، والوقوف على فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، وهل ثمة اعتراف من الغرب بهذا الفضل أم لا؟

وقد مر بنا فيما سبق أن التواصل بين الحضارات حتم لا زم وليس ثمة حضارة إلا وغشيها مبدأ التأثير والتأثر، التأثر بما سبقها والتأثير فيما يلحقها من حضارة، فهذا مبدأ عام في كل الحضارات ولم تشذ عنه واحدة منهم

وهذا قد تم للحضارة الإسلامية، وحضارة الإسلام تعترف بهذا ولا تنكره، لأن الإسلام لا يلغي الآخر بحال من الأحوال، ومن المبادئ العظيمة التي جاء الإسلام ليعلمها للبشرية مبدأ التعاون والتواصل في شتى المجالات الإنسانية، التعاون القائم على الاعتراف بالآخر لا إقصائه، التعاون القائم على الاعتراف بالتنوع والاختلاف لاسيما في

طرائق المعرفة والتفكير، هذا التعاون في ظل هذه السنة الكونية – التنوع والاختلاف - من شأنه أن يثري الإنسانية في حال تعاونها، وأن يودي بها في مزالق التيه والانحراف في حال انزوائها أو اختلافها، يتجلى هذا المبدأ في قوله تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات:١٣] فالإسلام يرسخ في أذهان أتباعه أن التنوع والاختلاف سنة كونية وبالتالي سنة حياتية.

في ظل هذه المسلمة العقدية والفكرية شيد المسلمون حضارتهم وبنوا صرحها في ظل تبادل إيجابي مع سائر الحضارات التي التقى بها الإسلام، وهذا التبادل كان في كل صنوف النشاط الإنساني، المعرفي، الفكري، الثقافي، المادي، ويؤكد د حمدي زقزوق هذه الحقائق حين يقول " لا توجد حضارة إنسانية عريقة نمت وتطورت دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات، فالتراث الإنساني أخذ وعطاء، ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث، ولم تشذ حضارة من الحضارات الكبيرة عن هذه القاعدة "[١]

ثم يؤكد الدكتور زقزوق مرور الحضارة الإسلامية بهذه التجربة التواصلية والتبادلية المعرفية والفكرية مع غيرها من الحضارات وأنها لم تشذ عن هذه السنة الإنسانية، فيقول " ومن هنا نجد أن الحضارة الإسلامية قد شيدها المسلمون شيئا فشيئا في تبادل حي مع الحضارات الأخرى التي التقت بها "[٢]

وقد سبق إلى هذا المعنى الفيلسوف العربي ابن رشد حين أكد على أهمية الالتقاء بين الحضارات، هذا الالتقاء القائم على الاعتراف، ومن ثم التبادل المعرفي والثقافي، وأن حضارة الإسلام كانت حريصة على هذا التبادل المعرفي والثقافي بينها وبين غيرها من الأمم، يقول " فقد يجب علينا أن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم: فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم "[٣]

ثم يقرر ابن رشد أن هذا الالتقاء الحضاري والتبادل المعرفي تنظر إليه الأمة من منظور عقدي وشرعي، لأن عقيدتها تنظر إلى هذا التبادل من منظور الواجب الشرعي،

(١) الإسلام وقضايا الحوار: د/محمود حمدي زقزوق، ترجمة: د/مصطفى ماهر، طـ: مكتبة الشروق الدولية – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، صـ٥٦

(٢) المصدر السابق: صـ٥٧

(٣) فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، قدم له وعلق عليه: د/ألبير نصري نادر، طـ: دار الشروق (المطبعة الكاثوليكية) بيروت – لبنان، طـ الثانية سنة ١٩٦٨م، صـ٣٣

يقول " فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع، إذ كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه، وأن من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها.. فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله.. وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى "[1]

فالحضارة الإسلامية تلاقت مع غيرها من الحضارات تلاقيا فكريا وثقافيا وكان هناك تأثير وتأثر بين هذه الحضارات في مختلف تلك المجالات الفكرية والثقافية والعلمية، مما يعزز القول: أن هذا التلاقي بين حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات – وبالأخص من جانب الإسلام – لم يكن تلاقيا صداميا أو إقصائيا، إنما كان تلاقيا تكامليا، ولم يتحرج المسلمون أن يضيفوا إليهم من منجزات الحضارات الأخرى ما يفيدهم فكريا وثقافيا وعلميا مع الاحتفاظ الكامل بالهوية الإسلامية، وهم في هذا الشق كان نصيبهم قليلا إلى حد ما، بينما في المقابل أعطى المسلمون غيرهم كل سبل التقدم العلمي والفكري والثقافي والحضاري، بما وصلوا إليه من منجزات علمية وحضارية في كافة المجالات.

وكما تعترف حضارة الإسلام بهذا التواصل المعرفي والتبادل الفكري والثقافي، فإنها أيضا تخبرنا من خلال شواهد كثيرة على فضلها على الحضارة الغربية وأن المعطيات العلمية والفكرية والثقافية التي نقلتها الحضارة الغربية عن حضارة الإسلام كانت هي عماد التقدم والنهضة التي عاشتها أوربا فيما بعد.

أما فيما يتعلق بالحضارة الغربية بخصوص هذا الفضل فإنها تنكره وتلغي معه فكرة التواصل مع الحضارة الإسلامية وكونها اتخذت المنجزات العلمية الخاصة بهذه الحضارة في تشييد دعائم حضارتها، لكن تبقى ثلة من المستشرقين يعترفون بهذا الأمر.

يصف لنا أحد المستشرقين حركة النشاط العلمي التي تميزت بها الحضارة الإسلامية لا سيما في عصر الفتوحات التي قام بها المسلمون، وكيف أن هذا النشاط العلمي كان يشمل كل المجالات العلمية كما كان يشمل كل طبقات المجتمع، ولا ريب أن هذا التأثير العلمي طال العالم كله، وقد استفاد منه العلم الحديث أيما إفادة، يقول نيكلسون " لقد صحب هذا التوسع (الفتوحات لإسلامية) نشاط فكري لا عهد للشرق بمثله من قبل، حتى لقد لاح أن الناس في العالم الإسلامي كله ابتداء من الخليفة إلى أقل المواطنين، قد أصبحوا طلابا للعلم، أو على الأقل من مناصريه، وكان الناس طلبا للعلم يسافرون عبر قارات ثلاث، ثم يعودون إلى ديارهم وكأنهم نحل تشبع بالعسل، وليؤلفوا بهمة عظيمة تلك الأعمال التي اتصفت بالدقة وسعة الأفق، والتي استمد منها العلم الحديث – بكل ما

(١) المصدر السابق: صـ٣٣

تحمله هذه العبارة من معان – مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض "[١]

ويبرز لوبون الفضل الهائل للعرب وحضارتهم على غيرهم من الغربيين بل وسائر الحضارات والأمم الأخرى، بواسطة التأثير الكبير الذي خلفته الحضارة الإسلامية على جميع هؤلاء، فيقول " ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب، وذلك أن جميع الأمم التي اتصل العرب بها اعتنقت حضارتهم، ولو حينا من الزمن "[٢] ومن خلال ذلك نستطيع أن نقول: إذا أردنا أن نجد قاسما مشتركا بين جميع الأمم والحضارة فإنما ذلكم القاسم هو الحضارة الإسلامية.

ثم يتابع لوبون حديثه عن المنجزات الحضارية للعرب وينوه أن الاستفادة من هذه الحضارة لم تكن وقفا على لون معين من ألوان هذه المنجزات بل كانت في كل الأنشطة، ولعل أبرزها هو النشاط العلمي، يقول " ولم يتجل تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها، بل تجلى في ثقافته العلمية أيضا "[٣]

وإذا كان هذا النص السابق يوحي أن لوبون إنما يتحدث عن تأثير الحضارة العربية في الشرق فقط، فإن هذا صحيح ولكن لوبون أراد أن يمهد من خلال هذا النص إلى إبراز التأثير الحضاري الإسلامي في الحضارة الغربية، وكأنه يريد أن يرسخ ما استنطبناه من كلامه قبل ذلك من أن تأثير الحضارة العربية الإسلامية لم يكن وقفا على أمة ولا حضارة بعينها إنما شمل هذا التأثير جميع الأمم وجميع الحضارات، ومن ثم تراه – أي لوبون – بعد أن جاء في النص السابق بما يعد دليلا على تأثير الحضارة الإسلامية على حضارة الشرق، نجده في النص التالي يبرز تأثير الحضارة العربية على حضارة الغرب، فيقول " نثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم أيضا، وأن أوربة[٤] مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه في الشرق"[٥] ثم يقارن بين هذين التأثيرين، أو بمعنى آخر يبرز مجالات التأثير الحضاري للعرب في الغرب بعد أن أبرز مجالات التأثير الحضاري للعرب في الشرق، فيقول " أما تأثيرهم – أي العرب – في الشرق فتراه باديا في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص، وأما

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، طـ: دار الفكر المعاصر – بيروت، لبنان، طـ الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، صـ١٠٨

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، طـ: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، طـ سنة ٢٠١٣م، صـ٥٨٤

(٣) المصدر السابق: صـ٥٨٤

(٤) في كتابة هذه الكلمة نلتزم بالشكل الذي ورد في النص، وإن كنا قد أملناها في غير هذا الموضع بالتزام الألف في آخرها.

(٥) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ٥٨٦

تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صفرا، وترى تأثيرهم الفني واللغوي فيه ضعيفا، وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيما "[١]

ثم يصور الحالة التي كانت عليها أوربا قبل ذلك الاتصال الحضاري بينها وبين العرب، ويعزو هذه النقلة العلمية والفكرية والثقافية للغرب إلى هذا الاتصال الذي نشأ بينهم وبين المسلمين، فيقول " ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربة حينما أدخلوا الحضارة إليها، إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية[٢] في إسبانية ساطعة جدا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفسية بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة "[٣] هذه هي الحالة التي كانت عليها أوربا لفترة زمنية طويلة، يصورها أحد أبنائها، ولم تتغير هذه الحالة من العزلة إلى الانفتاح، ومن الجمود إلى المرونة، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، إلا بعد اتصال الغربيين بالمسلمين من خلال المراكز الثقافية العلمية الإسلامية التي كانت منتشرة في بلاد الأندلس، يقول لوبون " ودامت همجية أوربة البالغة زمنا طويلا من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوربة بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم "[٤]

وهذا المعنى هو نفسه الذي ذهب إليه أحد المستشرقين وهو سيمون أوكلي حين قال "وكان المسلمون في القرون الوسطى - عندما قامت الكنيسة في أوربة تحرق العلماء - متفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوربة، فكانوا سببا لنهضتها وارتقائها "[٥]

وبالرغم من النصوص السابقة لهذه الثلة من المستشرقين الذي اعترفوا بالدور الحضاري العلمي والثقافي والفكري للحضارة الإسلامية، وريادتها في هذا الدور وفضلها على الحضارة الغربية، لكن يبقى معرفة هذا الدور والوقوف على جزئياته ووسائله وتفصيل معالم تلك الريادة في مختلف فروع العلم والثقافة منوطا بعلماء

---

(١) المصدر السابق: صـ٥٨٦

(٢) نلاحظ هنا أن لوبون استعمل لفظ الحضارة الإسلامية ولم يستعمل لفظ حضارة العرب الذي اعتاد استخدامه.

(٣) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ٥٨٦

(٤) المصدر السابق: صـ٥٨٦

(٥) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ١٠٩

المسلمين، وكان الدكتور عبدالرحمن بدوي واحدا من هؤلاء الذين أخبروا بدقائق هذا التواصل وكنه حقيقته، يبين لنا بعضا من هذه الدقائق فيقول "دور العرب في تكوين الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى دور مزدوج: دور الرسول الحامل لهم رسالة اليونان في الفلسفة، ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنتج.

فعن طريق العرب عرفت أوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مؤلفات أرسطو، وقِطَعا من فلسفة أفلوطين وأبرقلس ومعالم من فلسفة أفلاطون، إذ قام المترجمون في طليطلة وفي صقلية بترجمة كتاب (البرهان) من منطق أرسطو، أعني (التحليلات الثانية) و(السماء والعالم) و (الكون والفساد) و (السماع الطبيعي) و (الآثار العلوية) كما ترجموا كتاب (الخير المحض) المنسوب إلى أرسطو، وهي في الحقيقة فصول منتزعة من (إلهيات) أبرقلس.

وأعمق من هذا أثرا بكثير، أثر الفلاسفة أنفسهم في أوربا حينما ترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثة الناشئة، فترجم يوحنا الإسباني قسم (الطبيعيات) من كتابه (الشفاء) وقسم (النفس) و (الإلهيات) من (الشفاء) لابن سينا أيضا، كما ترجموا (مقاصد الفلاسفة) للغزالي، ومن ناحية أخرى ترجم جيرردو الكريموني جملة رسائل الكندي فيلسوف العرب، منها رسالة في العقل، ورسالة في الجواهر الخمسة، كما ترجم – فيما يبدو – رسالة (في العقل) للفارابي، ولما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين، بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفي الأوربي، وذلك في القرن الثالث عشر، فأحدث ابن سينا أولا تأثيرا عميقا واسعا، خصوصا إلهياته المتأثرة بأرسطو والأفلاطونية المحدثة معا، والتي يفسر فيها الكون ابتداء من الأول الذي يصدر عنه العقل الثاني ثم الثالث وهكذا حتى العاشر وهو العقل الذي يؤثر في الإنسان مباشرة، فهذا التصوير لصدور العالم عن الله الواحد هو الذي سيعتنقه الفلاسفة الأوربيون بدلا من التصوير الوارد في التوراة والذي كان سائدا حتى ذلك الحين "[1]

ثم يتعمق عالم آخر من هؤلاء العلماء يبرز من خلال هذا التعمق تفاصيل وجزئيات الدور الحضاري الإسلامي ومعالم ريادة الحضارة الإسلامية وفضلها على حضارة الغرب، كل هذا حين يقف هذا العالم وقفة مع فيلسوف قرطبة ابن رشد ويبين ما لهذا الفيلسوف وحده من فضل الإرشاد العلمي على الحضارة الأوربية، فيستعرض تأثيرات ابن رشد الفكرية والفلسفية على الغرب وما تخلل ذلك من هجوم غير مبرر على هذه العقلية الفلسفية الفريدة من جانب الكنيسة الغربية، يقول د عمر فروخ " ليس

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي: د/عبدالرحمن بدوي، طـ: وكالة المطبوعات الكويتية، ودار القلم – بيروت، طـ الثالثة سنة ١٩٧٩م، صـ٣١

ابن رشد أكبر فلاسفة الإسلام فحسب، بل هو أحد كبار الفلاسفة على الإطلاق، وإذا نحن اعتبرنا القيمة الحقيقية والأثر الصحيح مما تركه ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، فعمل بذلك على خروج أوربة من ظلمات التقليد إلى نور التفكير، وجب أن نضعه مع أفلاطون وأرسطو وكانط في صف واحد، وأن نرفع هؤلاء – في الفلسفة العقلية – فوق كل فيلسوف آخر.

ترجع قيمة أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٩٥هـ - ١١٩٨م) الحقيقية إلى تلك الهزة التي أحدثتها فلسفته في التفكير الإنساني، لقد شرح ابن رشد فلسفة أرسطو يوم لم يكن أحد في أوربة يستطيع فهمها، حتى عرف من أجل ذلك في أوربة باسم (الشارح) يعنون شارح كتب أرسطو، وقد قال عنه دانتي (ت ١٣٢١م - ٦٦٣هـ) في الكوميديا الإلهية (ابن رشد، أي شارح عظيم هو!)

إلا أن ابن رشد لم يكن شارحا لكتب أرسطو فقط، فكثيرا ما كانت شروحه على أرسطو في حقيقتها حجة لإبراز آرائه الشخصية، أو لتفسير الأراء القديمة تفسيرا صحيحا.

هذه الشروح كانت الوسيلة الوحيدة لفهم فلسفة أرسطو، حتى إنها كانت تطبع مع كتب أرسطو نفسها، وحتى إن وليم أكرز (ت١٢٣١م) فقيه باريس وعضو اللجنة التي ألفها البابا غريغوريوس التاسع لتهذيب كتب أرسطو اعتمد على كتاب ما وراء الطبيعة لأرسطو وعلى شرحه لابن رشد، وقد نُقلت كتب ابن رشد إلى العبرية واللاتينية وطبعت في البندقية وحدها أكثر من خمسين مرة.

ولقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها، وكان من حسناتها أن حلت عقال الفكر الأوربي وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعا على مصراعيه وخصوصا بما حملت معها من آراء مادية وطبيعية وشمولية، ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد وبإصابة آراء ابن رشد، وهكذا نشأ بينهم مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث وترك الاعتماد على الروايات الدينية.

ثم لما اجتاحت فلسفة ابن رشد عقول الفلاسفة في العصور الوسطى وساد العقل في كل مكان هبت الكنيسة لتقاوم هذا التيار الجارف بكل سبيل "[1]

وربما يكون ما أوردناه من نصوص للدكتور بدوي والدكتور فروخ لا يمثل في المقام الأول نقدا ذاتيا، إذ إن هذه الأقوال صدرت عن علماء عرب، لكن في الوقت ذاته وباعتبار آخر قد نعد هذه الأقوال نقدا ذاتيا لأنها في معظمها جاءت حكاية عن الغربين

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة: د/عمر فروخ، طـ: لمكتبة العلمية – بيروت، طـ الثانية سنة١٩٥٢م، صـ١١٣،١١٤

أنفسهم وهي بعد ذلك تنقل إلينا الواقع العلمي الذي كانت أوربا تحياه وكيف أنه تغير حين اطلعت على حضارة الشرق وعلومه، وهي أيضا – النصوص السالفة – تحكي لنا الواقع الوجداني الذي انطوت عليه صدور هؤلاء تجاه كل ما هو عربي وإسلامي.

وإن أمثال هذه النصوص سواء التي صدرت عن علماء عرب أو عن مسشترقين تبقى أنها تصور حالة النقلة الحضارية التي انتقلتها أوربا بفضل اطلاعها على علوم الشرق وآدابه وحضارته، بل إن كثيرا من النصوص تكشف اللثام عن أن كثيرا من التراث الغربي الفكري والثقافي الذي طالما تغنت به أوربا وامتدحت به نفسها أو مدحها غيرها، جاءت هذه النصوص لتبين لنا أن هذا التراث ما هو في الحقيقة إلا تقليد أو محاكاة للثقافة الشرقية وفي الغالب الأعم ما هو إلا مجرد نقل صريح لتراث الشرق الإسلامي.

ومن أمثال ذلك: تلك الكوميديا الإلهية لشاعر الغرب العظيم دانتي، فهذه الكوميديا وشاعرها يمثلان تراثا أدبيا وفلسفيا وفكريا ضخما في التصور الغربي الأوربي، ولكن سرعان ما هوى هذا التصور وتلاشت أبعاده على يد المستشرق أسين بلاسيوس الذي أعلن في جرأة واضحة أن هذه الكوميدا تعكس تأثرا واسع المدى بالإسلام.

جاء تحت عنوان: المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتي، ما نصه " كانت قنبلة هائلة تلك التي ألقاها المستشرق العظيم أسين بلاسيوس وهو يلقي خطاب استقباله في الأكاديمية الملكية الإسبانية في جلسة ٢٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩م لما أعلن أن دانته في الكوميديا الإلهية قد تأثر بالإسلام تأثرا واسع المدى، يتغلغل حتى في تفاصيل تصويره للجحيم والجنة، إذ تبين له أن ثمة مشابهات وثيقة بين ما ورد في بعض الكتب الإسلامية عن معراج النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- وما في رسالة الغفران للمعري وبعض كتب محي الدين بن عربي من ناحية، وبين ما ورد في الكوميديا الإلهية، وفي هذه المشابهات من الدقة والتفصيل ما يجعل من المؤكد أن التشابه هنا لم يكن أمرا عرضيا وتوارد خواطر، بل كان من تأثر مباشر بالتصورات الإسلامية للآخرة، وراح أسين يعدد نقاط التشابه هذه استنادا إلى المصادر الإسلامية، مقارنا إياها بما ورد في الكوميديا الإلهية، وكل ذلك بعلم غزير ومنهج دقيق "[(١)]

مما سبق بيانه يبدو واضحا من خلال هذه الإضاءات والإطلالات، أن نجاح الحضارة الغربية في الاستفادة من المنجزات العلمية للإسلام والتي كانت فيما بعد عماد نهضتهم الحديثة، فكانت هذه المنجزات هي خير هدية قدمها المسلمون إلى الغرب، هذا النجاح يكاد يكون أمرا متفقا عليه من كل باحث منصف، ولا ينكر إلا بدافع من تعصب، وقد برز من هؤلاء الباحثين – زيادة على ما سبق - المستشرق ريتشارد باورز الذي أخذ يعدد معالم النهضة العلمية الإسلامية وأثرها البارز على الحضارة الغربية واستفادة

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي: د/عبدالرحمن بدوي، صـ٤٩

الغرب من هذه المعالم والمنجزات العلمية للإسلام، ولأهمية مقالته أحببت أن أوردها كاملة - بالرغم من طولها – لما لها من أهمية في تجلية الحقيقة الغائبة عن كثيرين، أو بالأحرى التي يتعمد تغييبها أو إقصائها، وفي الوقت ذاته نستشرف من خلالها قوة العطاء الحضاري الإسلامي في مختلف ميادين العلم، للحضارة الغربية، ولولا هذا العطاء لظلت أوربا تعيش في عصورها المظلمة إلى الآن، حول هذه الحقائق يحدثنا ريتشارد باورز فيقول " إن أفكار العظماء أمثال أينشتين ونيوتن، وماكسويل، وديكارت، وبيكون، وغيرهم لم تكن لتولد لولا العالم العربي الحسن بن الهيثم، الذي أرشد إلى كلمة السر ومفتاح التقدم بتأسيس المنهج العلمي السليم للبحث في العلوم الطبيعية، وكان المسلمون أينما حلوا ينشرون معالم هذا المنتج العلمي، وعنهم انتقل إلى أوربا فحولها من عصورها الوسطى إلى العصر الحديث، وما يعنينا هنا على أية حال هو ثمرة اختلاط العرب بالأمم اللاتينية في القرون الوسطى، واللقاء بين ثقافة يانعة براقة، وثقافة ناشئة اجتذبها البرق الأخاذ، وكان الإخصاب الذي أسفر عنه هذا اللقاء فذا رائعا لا ينضب معينه ولا ينقطع مدده، ولولاه لتأخرت مسيرة المدنية عدة قرون، ولما وصلنا إلى حضارة اليوم بكل شمولها وأبعادها وآثارها، وقد تمت عملية الإخصاب هذه – في جانبها الفكري والعلمي – بصورة رئيسة عن طريق ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية في: صقلية وجنوب إيطاليا من ناحية، وفي الأندلس ومدينة طيطلة من ناحية أخرى

وكان المترجمون غالبا من اليهود أو المستعربين وفي بعض الأحيان من العرب الذين كانت لديهم معرفة واسعة ومباشرة بالعالم الإسلامي - ثم يستعرض ريتشارد باورز المجالات العلمية والفكرية والثقافية المختلفة التي انتقلت من الحضارة الإسلامية إلى الغرب والتي مثلت أبرز مجالات التأثير والتأثر بين كلا الجانبين الإسلامي والغربي، فيقول-: أما صقلية التي فتحت سنة ٨٢٧م فقد شهدت تأسيس أول مدرسة في الطب في عاصمتها بالرمو، وأدخل العرب في الجزيرة صناعات وزراعات لم تكن معروفة لأهلها، منها صناعة الورق والمنسوجات الحريرية وأساليب الفن المعمارية والصناعات الدقيقة، وكان (أوجين البالرمي) من أشهر المترجمين عن العربية، حيث ترجم كتابي (المجسطي) و (أوبتيكا) و (البصريات) وكذلك اشتهر الجغرافي العربي الشريف الإدريسي (استرابون العرب) بكتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) عام ١١٤٥م والذي جمع فيه بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الرياضية الفلكية، وفي مجال الرياضيات والفلك أخذ الراهب (جيربرت الأوريلاكي) عن العلماء المسلمين الأرقام العربية والأسطرلاب ونشرها في أوربا، وبعد ذلك انتشرت الأرقام العربية وإجراء العمليات الحسابية وفقا لطريقة المعداد الذي أخذه عن العرب، وعلى غرار ما حدث في الرياضيات والفلك، كانت بداية دخول الطب العربي إلى أوربا عن طريق مدرسة (سالرنو) وكان الراهب العربي قسطنطين الإفريقي (ت١٠٨٧م) رائدا لفريق الترجمة في هذه المدرسة، وقد ترجم أربعة

وعشرين كتابا عن العلماء العرب في مجال الطب منها (الكتاب الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية) لعلي بن عباس المجوسي، وألف قسطنطين على منواله كتاب (الكليات) ومنها كتاب (زاد المسافرين) لابن الجزار القيرواني و (طب العيون) لحنين بن إسحاق، وعدة رسائل أخرى لإسحاق الإسرائيلي في البول والحميات والأدوية، وكانت هذه الكتب التي ترجمها قسطنطين تدرس في مدرسة (سالرنو) وامتد تأثيرها إلى أنحاء أوربا بأكملها، ومن صقلية وإيطاليا تدفق سيل الترجمة تدفقا متواصلا، وظلت حركة الترجمة على أشدها حتى القرن السادس عشر الميلادي.

وأما إسبانية: فقد أصبحت المركز الثقافي المتميز الذي يأتيه مثقفوا أوربا كلها طلبا للعلم من المصادر العربية وكان (آديلار الباثي) من رواد هذه النهضة وكتب (المسائل الطبيعية) في مختلف المسائل البيولوجية والمسائل المتعلقة بالطبيعيات، وحاول من خلال ذلك أن يرسم بداية منهج علمي يؤكد على أهمية البحث عن الأسباب الطبيعية، ومن أهم ترجمات (آديلار الباثي) كتاب الخوارزمي في الحساب بعنوان (الجمع والتفريق بحساب الهند) وهو أول كتاب من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة العلمية، كما أنه أول كتاب دخل أوربا وبقي المصدر المعتمد في البحوث الحسابية، وبقي علم الحساب عدة قرون معروفا باسم (الجورتمي) نسبة إلى الخوارزمي وكذلك ترجم (زيج الوارزمي) ولابد هنا من التنويه بالدور الذي أداه (ريموند) أسقف طليطلة وكبير مستشاري ملوك قشتالة آنذاك في تشجيع حركة الترجمة، وكذلك خلفاؤه من بعده ومنهم الأسقف (دومينكوس جونديسالفي) من كبار المترجمين الذي شاركه يوحنا ابن داود، فنقلا بعض مؤلفات ابن سينا مثل (النفس) و (الطبيعية) و (ماوراء الطبيعة) وبعض آثار الغزالي مثل كتاب (مقاصد الفلاسفة) كما اشتهر في حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية (جيرار الكريموني) الذي ترجم نحو سبعة وثمانين كتابا عن العربية في الفلسفة والمنطق والرياضيات، وفي الفلك والطبيعيات والميكانيكا (علم الحيل) مع شرح الكندي وثابت بن قرة وابن ماسويه وأبي بكر الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن سينا وغيرهم، وهناك أيضا (روبرت الشستري) الذي يؤثر عنه اهتمامه الكبير بمآثر الشرق في الرياضيات، حيث ذهب إلى أسبانيا ودرس في برشلونة، وكانت ترجمته لكتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) أساسا لدراسة كبار العلماء فيما بعد أمثال (ليونارد البيزي) و (كردان) و (تارتا جليا) و (فيراري) وغيرهم من الذين تقدمت على بحوثهم موضوعات الجبر العالي، ونذكر من أمثلة الكتب العربية ذات التأثير الواضح في النهضة العلمية الأوربية كتاب (الزيج الصابي) للبتاتي، الذي ترجمه أفلاطون التيفولي في القرن السادس عشر الميلادي بعنوان (علم النجوم) وكتاب (غاية الحكم) للمجريطي، وكتاب (الحاوي) و(المنصوري) في الطب للرازي وكتاب (القانون) و(الشفاء) و(النجاة) لابن سينا، وكتاب (المناظر) لابن الهيثم، وكتاب (التيسير) لابن زهر، وكتاب (التصريف) للزهراوي، وكتاب (الكليات) لابن رشد، وكتاب (الأقاربازين)

لابن الجزار، ومهما يكن من أمر فقد نشطت حركة الترجمة والنقل في صقلية وإيطاليا وأسبانيا، وتسابق الرجال من ذوي العقول النيرة إلى (بالرمو) و(سالرنو) و(طليطلة) لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ولم يظهر في أوربا آنذاك كتاب واحد تقريبا إلا وقد ارتوت صفاحاته بالينابيع العربية وظهرت فيه بصمات الفكر العربي واضحة جلية سواء من حيث اللفظ والكلم أو من حيث المعنى والمضمون"[1]

ومما سبق نلاحظ أن مجالات العطاء العلمي من جانب الحضارة الإسلامية كان غزيرا ومتنوعا بحيث شمل كل ميادين البحث العلمي والفكري، وبالتالي فهذا العطاء العلمي للحضارة الإسلامية قد أثر تأثيرا واضحا في الغرب بل كان هو السبب الرئيس في النهضة الحضارية التي شهدتها أوربا بعد أن غطوا في نوم عميق ولم يكادوا يفيقون منه في عصورهم الوسطى، وكان الذي أيقظهم من سباتهم، مشاعل العلم التي رفعتها حضارة الإسلام، وقد أكد الدكتور أحمد فؤاد باشا هذا التواصل الحضاري بين حضارة الإسلام والغرب في مختلف المجالات العلمية، وأن هذا التواصل معترف به من جانب الغربيين أنفسهم ولم يعد وجوده مصدر شك أو إنكار لأي باحث منصف منهم، و لايسع أحدهم إلا الاعتراف الصريح أن هذا التواصل كان سببا قويا في نهضة أوربا الحديثة، فيقول في موطن آخر " لكن المنصفين من مؤرخي الغرب يؤكدون بما لا يدع مجالا للشك أن من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور النهضة الأوربية وانتشارها في جميع أنحاء أوربا كان اتصال الأوربيين بمراكز الحضارة العربية الإسلامية، سواء أيام الحروب الصليبية حيث استمر الاتصال الحضاري بالشرق مدة قرنين من الزمن، أو أيام حكم العرب للأندلس حيث ساد ما يقرب من ثمانية قرون، أو عن طريق جزيرة صقلية التي خضعت لحكم العرب ما بين منتصف القرن التاسع وأواخر القرن الحادي عشر، وقد تأثر الأوربيون بالحضارة العربية الإسلامية والمزدهرة في مصادرها المختلفة

(١) أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، مقال للدكتور/ أحمد فؤاد باشا، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تحت عنوان: إنسانية الحضارة الإسلامية، القاهرة سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، صـ٣٦٩-٣٧٧ بتصرف، يلاحظ في هذا النص أنه نص طويل، بيد أن إيراده كاملا بهذا الشكل كان من الأهمية بمكان، إذ إنه يعد شاهد صادق وبرهان تأييد على ما أثارته هذه الجزئية التي ورد فيها هذا النص وهي اتصال الحضارات بعضها ببعض ومجال التأثير والتأثر، وقد بدا هذا واضحا جدا بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وأن الأولى أثرت تأثيرا واضحا في الثانية في شتى المجالات العلمية، مما كان سببا قويا ورئيسا في نهضتها الحضارية، وأيضا مما استدعى وجود هذا النص بشكله الراهن، أنه يدحض تلك الادعاءات التي تلوكها ألسنة البعض سواء من الغربيين أم من غيرهم والتي تتعلق بنفي أي التقاء أو تواصل بين حضارة الإسلام والغرب فضلا عن تأثير الإسلام في الغرب، فهذا النص قد استعرض كثيرا من الحقائق التاريخية التي تؤكد وقوع هذا التواصل وتؤيد فضل الحضارة الإسلامية على الغرب في مختلف المجالات العلمية والفكرية والثقافية.

فلجأوا إلى دراسة الثقافة العربية الإسلامية واقتبسوا منها الشيء الكثير ولا سيما في مجال الفنون والعلوم الطبيعية.. ومن ثم انتقلت المعارف المتنوعة إلى الشعوب الأوربية في سهولة ويسر "[١]

وهذا التواصل وما تبعه من عطاء علمي من جانب حضارة الإسلام إلى الغرب وبروز النهضة الأوربية مؤسسة على هذا العطاء لم يعد في الإمكان نكرانه أو غض الطرف عنه – كما سبقت الإشارة – وقد كانت الإشادة بالحضارة الإسلامية وما لها من فضل السبق إلى العلوم والمعارف ومن ثم تأثيرها في نهضة أوربا، محل اعتراف من جانب المستشرقين، وقد كان من هؤلاء المستشرق البريطاني مونتجمري وات الذي تحدث عن هذا التواصل والعطاء العلمي للحضارة الإسلامية وفضلها في تكون النهضة والأوربية، ليس هذا فقط بل إنه في طيات كلامه ينفي تهمة الهمجية عن الفتوحات الإسلامية، تلك التهمة التي ألصقها بالإسلام كثيرون وهو منها براء، ومن ثم فإن وات يبرئ الفتوحات الإسلامية من هذه التهمة مستبعدا أن تكون الهمجية وصفا لقوم عنوا بالعلم مثل هذه العناية ولهم من النظم الاجتماعية والسياسية مثل ما للمسلمين، يقول " ثمة ما يغري المؤرخ لأوربا بعد الكتابة عن غزوات الألمان والسلافيين والمجريين والإسكندنافيين، بأن ينظر إلى الفتح العربي لأسبانيا باعتباره غزوا همجيا مماثلا، ورغم أن الكافة تدرك الآن أن النظم السياسية والاجتماعية لدى الغزاة المسمين بالهمج كان لها فضل في بناء أوربا، فمن الواجب أن نقمع بشدة أي ميل إلى تشبيه العرب بأولئك الأخرين "[٢]

وبعد استعراض فضل الحضارة الإسلامية على الغرب، ووقوفنا على معالم تلك الحضارة، وما تميزت به من كونها حضارة إسلامية إنسانية علمية وفكرية وثقافية، وأن هذه الحضارة عنيت بالعلم أيما عناية وبلغت فيه شأوا بعيدا، بعد هذا الاستعراض لو رحنا نسأل عن سر هذا التقدم العلمي الذي بلغته حضارة الإسلام، فإننا لا نعدم من يجيبنا على كنه هذا السر، ولا نعدم أيضا أن يكون هذا المجيب واحدا من أبناء الحضارة الغربية التي تشبعت بمنجزات الحضارة الإسلامية من العلم والفكر، إنه لوبون الذي عزا هذا التقدم العلمي لحضارة الإسلام، للإسلام ذاته في كونه دينا يلائم العلم ويلائم الاكتشاف العلمي، وهذا صحيح فالعلاقة بين العلم والدين علاقة قوية راسخة، بحيث يكون العلم فيها دينا والدين فيها علما، ولعل الحديث عن هذه العلاقة يكون محله

(١) التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة: د/أحمد فؤاد باشا، طـ: دار المعارف –القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، صـ٢٤،٢٥ بتصرف بسيط

(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: مونتجمري وات، نقله إلى العربية: حسين أحمد أمين، طـ: دار الشروق – القاهرة، بيروت، طـ الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، صـ١٨،١٩

النقطة التالية، وفي ملائمة الإسلام للعلم يقول غوستاف لوبون " والإسلام من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم "[١]

وحتى نكون على بينة من أمر الاستشراق والمستشرقين وما وقر في صدورهم للإسلام وحضارته، أن مثل هذه الآراء التي تمثل نقدا ذاتيا حين تخرج للعلن ويصدح بها أصحابها معلنين الحقيقة التي لا مرية فيها، إذا بهم يواجهون سيلا من التأنيب والتقريع من جموع المستشرقين، وأقرب مثال على ذلك هذا الرأي السابق لسيمون أوكلي الذي جهر من خلاله بتفرد الحضارة الإسلامية بالعلم والمعرفة في الوقت الذي كانت أوربا تغرق في ظلمات الجهل والتخلف، ولم تعرف طريقا للنهضة إلا من خلال حضارة الإسلام، هذا الرأي كان سببا في هجوم بعض المستشرقين عليه إذ إنه صرح بالحقيقة المرة لديهم التي كانوا أحرص الناس على إخفائها فضلا عن عدم الاعتراف بها، في هذا يقول د شوقي أبوخليل " عندما قال (سيمون أوكلي) في كتابه (تاريخ العرب) الذي ظهر المجلد الأول منه سنة ١٧٠٨م: إن المسيحين الأوربيين يدينون للمسلمين بأول ما عرفوه من الفلسفة[٢]: أبدى الاستشراق رأيا يقول: إن موقف (أوكلي) من المسلمين كان صدمة مؤلمة للجمهور الأوربي "[٣]

ويعلق د شوقي أبوخليل على هذا المنهج المعادي للحق والحقيقة، بأنه أصبح ديدن المستشرقين إزاء كل حقيقة تقال وإزاء كل مستشرق يقول بها، يقول " الحقيقة في عرف (المسقطين[٤]) صدمة مؤلمة، خصوصا إن كانت بحق الإسلام والمسلمين – ثم يضرب مثالا حيا على ذلك – لقد قال (وليم وستن) خليفة نيوتن في جامعة كمبردج، الحقيقة في يوم من الأيام، وأنصف الإسلام بكلمات أدت إلى طرده من كمبردج – ثم يتساءل عن محاربة العلم أي الطرفين يرفع لوائها المسلمون أم الغربيون – فمن الذي يحارب العلم والفلسفة وحرية الرأي والكلمة؟!! "[٥]

---

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ١٣٢

(٢) هذا القول يعد من قبيل أقوال النقد الذاتي

(٣) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ١٢٢

(٤) يعني المستشرقين الذي يستخدمون منهج الإسقاط كمنهج رئيس في البحث، خصوصا عندما يتعلق هذا البحث بالإسلام والمسلمين وحضارتهم، حتى تراه أطلق هذا اللفظ عنوانا لكتابه

(٥) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ١٢٣

المبحث الثالث

الإسلام والعلم والنقد الذاتي للاستشراق

طالما شكلت هذه الجزئية ركنا هاما في أبحاث المستشرقين، ولعلها تتصل بالجزئية السابقة عليها فبينهما قدر مشترك وهو العلم في حد ذاته، وإذا وجدت الحديث عن العلم وموقف الإسلام منه فاعلم أن الاستشراق يريد أن يقطع كل صلة بين الإسلام والعلم، وأن يأتي على كل علاقة تقوم بين الإسلام والعلم فيجتزها من جذورها، هذا هو الموقف الرسمي والأصيل والمعلن من المستشرقين تجاه العلاقة بين الإسلام والعلم، لذلك تجد أن كل الشبهات التي يثيرها هؤلاء حول هذه العلاقة تدور على أن الإسلام دين غير عقلاني لا يعترف بالعلم والتعقل بل إنه على العكس من ذلك دين يدعو إلى الخمول والركود ويساير الجهل ويشجعه، بل إنه السبب الرئيس في الحالة التي وصل إليها المسلمون اليوم !! ولعلهم في إثارتهم لهذه الشبه يبدو واضحا تمكُّن الحسد والحقد أكثر ما يكون ضد الجنس العربي بأكمله، وكيف لهذا الجنس – وهو في نظرهم محط الجهل والخبل – أن يقود بواسطة الإسلام حملة لتطهير العقول والقلوب مما ران عليهما من أفول وجمود، وكيف لهذا الدين وحملته من العرب أن يغيروا وجه التاريخ وأن يصنعوا حضارة تشرق فيها شمس العلم والمعرفة وتسطع أشعتها على العالم كله، حملهم هذا وغيره على أن يكنوا الحقد والحسد للإسلام وأهله، فأخذوا يرمونه بالخرافات والأباطيل، حتى تساءل قائلهم " كيف يستطيع دين العربي الذي لا يقدس العقل أو يحترمه، أن يسابق دين ابن الله؟ وهل دين الإسلام إلا مجموع خرافات وأباطيل لا يقبلها عقل "[(١)]

وهذا الموقف يمثل موقفا عاما لدى المستشرقين، تعكسه أقوالهم، ومن هذه الأقوال ما نطق به أرنست رينان " حارب الإسلام العلم والفلسفة "[(٢)] ومنهم من رأى – كما سبق – أن الإسلام في حد ذاته هو حجر عثرة في سبيل تقدم المسلمين، ولن يتسنى لهم السير في هذا الطريق إلا عندما يتخلون عن هذا الدين، يقول وليم جيفورد بالكراف "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه"[(٣)] ويؤيد هذه النظرة اللورد كرومر حين قال " إن الإسلام دين مناف للمدنية، ولم يكن صالحا إلا للزمن والمحيط اللذين وجد فيهما، وإن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن

(١) الهلال والصليب: خليل خالد أفندي، طـ: مطبعة الهداية – القاهرة، طـ سنة ١٣٢٨ه/١٩١٠م، بعناية الشيخ/عبدالعزيز جاويش، صـ٦٢

(٢) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ٩٨

(٣) قادة الغرب يقولون «دَمِّرُوا الإِسْلاَمَ أَبِيدُوا أَهْلَهُ»: جلال العالم، عبد الودود يوسف الدمشقي، طـ سنة ١٣٩٥ هـ/١٩٧٤م، صـ٤٩

إلا بعد أن يتركوا دينهم، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا "[١]

وإذا كانت هذه النصوص – وغيرها كثير - تمثل الموقف الرسمي للاستشراق والمستشرقين، فإن ثمة بعض المستشرقين كانت لهم مواقف على الضد من هذا الموقف الرسمي، ومثلوا بموقفهم هذا نقدا ذاتيا لظاهرة الاستشراق فيما يخص العلاقة بين الإسلام والعلم.

ومن المناسب أن نستهل حديثنا في هذه الجزئية مستئنسين بما أشرنا إليه سابقا من كون بعض المستشرقين قد أرجع أسباب التقدم العلمي للإسلام وحضارته للإسلام ذاته لكونه دينا يختلف عن كافة الأديان من حيث طبيعته الملائمة للعلم، وقد قررنا سالفا أن هذا صحيح فالعلاقة بين العلم والدين علاقة قوية راسخة، بحيث يكون العلم فيها دينا والدين فيها علما

يتلمس لوبون أسباب هذه الملائمة فيعزوها إلى اهتمام الإسلام بتهذيب النفس وحملها على أعالي الأخلاق ومكارم الصفات من العدل والإحسان وغيرها من الشمائل التي تسهم في محبة العلم وطلبه والحرص عليه، يقول لوبون في معرض حديثه عن الإسلام وكونه ملائما للعلم "والإسلام من أعظمها – أي من أعظم الديانات – تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والإحسان والتسامح والبُدهية "[٢]، ثم يؤكد لوبون إسناده أسباب التقدم العلمي عند المسلمين لما انطوى عليه الإسلام من قيم خلقية رفيعة أهلتهم لحيازة هذه النهضة العلمية، فيقول " ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقا في ازدهار حضارة العرب[٣] "[٤]

ويؤيد صحة القول السابق للوبون، الواقع، ففي فترة زمنية من تاريخ الإسلام كان انتشار العلم وظهور المؤلفات العلمية في مختلف المجالات والتخصصات أكبر دليل على ذلك، وسبق المسلمين إلى ترجمة التراث العلمي لغيرهم والاستفادة منه يعد من أكبر الأدلة على عناية المسلمين بالعلم والحركة العلمية، وقد بدا هذا واضحا في التشجيع المستمر من الخلفاء للعلماء على مواصلة هذا النشاط العلمي.

وقد صور أحد المستشرقين النتاج العلمي الذي كان للمسلمين في بلاد الأندلس،

---

(١) الإسلام روح المدنية أو الدين الإسلامي واللورد كرومر: مصطفى الغلاييني (ت١٣٦٤هـ) طـ بيروت سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، صـ١٣

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون: صـ١٣٢

(٣) نلاحظ في هذا النص وما يليه من نصوص لـ لوبون أنه يركز على استعمال لفظ: حضارة العرب، ولا يميل إلى استخدام لفظ: حضارة الإسلام، بل إنه وسم كتابه بـ حضارة العرب، وربما يكون هذا بعض أثارة مما كمن في نفسه مما لم يقدر على التخلص منه من سائر ما كمن في نفوس المستشرقين تجاه الإسلام، بالرغم من أنه يصرح بالحقائق في كثير مما يعرض له.

(٤) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ٥٩٠

وهو نتاج علمي ضخم، وكيف لم يحافظ الغرب على هذا النتاج العلمي بل كان موقفهم منه هو الإبادة والحرق، وهذا يعكس موقف كلا الحضارتين الإسلامية والغربية من العلم.

ينقل أحد الباحثين قول هذا المستشرق بما نصه " قال (كوندي) في تاريخه: إن مسيحي إسبانية لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت إليه أيديهم من مصنفات المسلمين، وعددها مليون وخمسون آلاف مجلد، وجعلوها زينة وشعلة في يوم واحد، ثم رجعوا على سبعين مكتبة في الأندلس، وأنشأوا يتلفون كل ما عثروا عليه في كل إقليم من مؤلفات العرب، وقال أحد مؤرخيهم (ربلس): إن ما أحرقه الإسبانيول من كتب الأندلسيين بلغ ألف ألف وخمسة آلاف مجلد، وذكر بعض المؤرخين أن أحد جثالقتهم[١] أمر بإحراق ثمانين ألف مجلد في ساحات غرناطة عقيب استيلائهم عليها، وإنهم قبضوا على ثلاث سفن قاصدة مراكش تقل ما عز على المسلمين أن يخلفوه وراءهم من أسفارهم فألقوها في قصر الإسكوريال ثم لعبت فيها النيران "[٢]

لك أن تتخيل أيها القارئ الكريم لو أن هذا التراث العلمي الضخم الذي أنشأه المسلمون ترك لتستفيد منه البشرية، لكن هذه الاستفادة لم تكن حاضرة آنذاك في أذهان هؤلاء الغربيين الذين أتلفوا هذا التراث العلمي لكونهم كان بينهم وبين العلم شأوا بعيدا لذلك لم يقدروه قدره فكان منهم ما كان من الإتلاف والإحراق.

هذا الإتلاف الذي تم بسهولة، لم يدرك القائمون به، كم أضنى المسلمون أنفسهم في سبيل الحصول عليه، فقد قاموا بمجهودات جبارة من عكوف على حضارات السابقين فهما ودراسة وترجمة واستيعابا وإضافة وتنقية وغير ذلك من طرائق البحث العلمي والمنهجي الصحيح حتى صنعوا علوما إسلامية نافعة لهم ولغيرهم، وتبدوا مظاهر هذا النفع الخاص بهم فيما خلفه المسلمون من حضارة علمية شهد لها القاصي والداني، أما مظاهر النفع لغيرهم فقد جعل المسلمون من هذا التراث العلمي منهلا عذبا يرده الجميع لينهل منه قدر المستطاع حتى يحرزوا ما طاب لهم من تقدم علمي وصنع حضارية علمية ثقافية، ولم يشأ المسلمون أن يحجبوا هذا التراث العلمي عن غيرهم أو أن يضنوا به عمن سواهم، بل صار كالكلأ المباح لكل راغب في العلم والحكمة، وإن أول المستفيدين منه الغرب، ليس فقط في كون الغرب استفاد منه في نهضته العلمية، بل لأن هذا الكنز الذي قدمه العرب للغرب كان عبارة عن مزيج اختلطت فيه كنوز العلوم القديمة من الشرقيين وغيرهم، بعد أن عكف عليه المسلمون تنقية وتصفية وتهذيبا، حتى أخرجوه بصورته اللائقة كهدية منهم لركب العالم، ويأتي على رأس هذا الركب الغربيين.

نقف على نقد ذاتي للمستشرق الفرنسي ألدوميلي، حام حول هذا المعنى، وذلك

(١) تعني الكردينال.

(٢) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ١٣٠

حين قال " معروف أن الأهمية العالمية للعلم العربي ترجع إلى أنه نقل كنوز العلوم القديمة من المغرب والمشرق إلى الشعوب المسيحية في غربي أوربة، بعد إخضاع هذه العلوم لتنمية وإنضاج هامين كثيرا أو قليلا "[١]

وحري بنا في هذا المقام أن نذكر ما يتصل به وهو: أن ثمة زعما خاطئا يرويه خصوم الإسلام يرومون من ورائه اتهام الإسلام بالعداء للعلم، يتمثل هذا الزعم – وهو مطية الكذب – في أن المسلمين إبان فتح مصر قاموا بتحريق مكتبة الإسكندرية!، ولعل الذي دفعهم إلى هذا، هو التعصب الذميم واعتيادهم على استخدام منهج الإسقاط، الأمر الذي جعلهم يقذفون المسلمين بتهم هم منها براء وهي بهم أشد التصاقا.

ثم يأتي أحد المستشرقين ليدفع هذه التهمة عن المسلمين، وقبل دفعها يُطَوِف بنا ليعطينا فكرة عامة عن السماحة التي استعملها الفاتحون العرب مع أهل مصر والتي استقوها من تعاليم الإسلام، فيقول " وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم، فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء زمنا طويلا؟ وهذه القصة دحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها "[٢]

لا يفتأ المرجفون من أعداء الإسلام أن يرموه بالتهم التي تصوره على أنه دين يعادي العلم ويلغي العقل، ولكن هذه السلوكيات بحق بعيدة كل البعد عن أخلاق المسلمين لاسيما فيما يتعلق بتبديد العلم، وهذا ليس راجعا إلى أخلاق المسلمين فقط بل إنه في المقام الأول يرجع إلى الإسلام، لأن الإسلام يكاد يكون الدين الوحيد الذي يعلي من شأن العلم ويضعه في مصافه، فالدين في الإسلام علم والعلم في الإسلام دين، لذلك عني المسلمون دائما بالعلم وبالبحث فيه، لذلك أينما حلوا أو ارتحلوا تجد لهم حضارة، بل إنك لا تجد أمة من الأمم إلا وللإسلام عليها من الفضل العلمي ما له، ولا ريب أن حضارة الغرب كانت من أبرز الحضارات التي استفادت من المنجزات العلمية للحضارة الإسلامية .

وهذا كله يرجع إلى سبب رئيس ولولاه لما وجدت للإسلام كل هذه الحضارة وكل هذا الفضل، إنه يتلخص في حرص الإسلام على العلم ووجود تلك العلاقة بينهما، فالعلاقة بينهما علاقة وطيدة بحيث لا يتخلف أحدهما عن الآخر بحال من الأحوال، فالدين عندنا علم والعلم عندنا دين، بل إننا حين ننادي بوجود حضارة للإسلام فإننا نعني بهذه الحضارة الطفرة العلمية والفكرية التي أحدثها علماء الإسلام والتي كان

(١) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي: ألدوميلي، نقله إلى العربية: د/عبدالحليم النجار، د/محمد يوسف موسى، قام بمراجعته على الأصل الفرنسي: د/حسين فوزي، طـ: دار القلم – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، صـ٤٢٣

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ٢٢٥

سببها الرئيس وباعثها الأوحد هو الاسلام ذاته، بما انطوى عليه جوهره من وحدة وائتلاف بينه وبين العلم، فهذه العلاقة التمازجية كانت السبب في وجود الحضارة الإسلامية، ولو كانت هذه العلاقة في صورة أخرى كالانفصامية أو التباعدية مثلا ما وجدت حضارة للإسلام، بل وجدت جمودا وتحجرا وما ينتج عنهما من تأخر وتخلف ورجعية، لكن لما كان الإسلام قد أوجد حضارة تقدمية وفكرية وعلمية وثقافية، فإن هذا يعكس الصلة الحقيقية بين الإسلام والعلم، لذلك فكل قول للمستشرقين يوهم أن الإسلام دين تخلف وتأخر، فإنما هو في حقيقته قول يحاول انتزاع العلاقة الحقيقية بين الإسلام والعلم ووصفها بأنها علاقة انفصامية تباعدية

أما الشبهة التي يحاول المستشرقون وغيرهم الترويج لها وفحواها: أن الدين هو سبب التخلف بالنسبة للشرقيين، وأن الإلحاد هو سبب التقدم بالنسبة للغربيين، ومن ثم إذا أراد الشرق أن ينهض فلابد من اقتفاء أثر الغرب مستعينا بوسائل نهضتهم!!

فهذا درب محال إذ كيف يكون الإلحاد سببا لتقدم أو أساسا لنهضة!

إن التأخر الذي يعاني منه المسلمون اليوم له سبب آخر قطعا ليس التمسك بالإسلام إنما التخلي عن الإسلام وهذا ما أكده المفكر مالك بن نبي، حين قال" إن التخلف الذي يعاني منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين "[1]

فلو كانت العلاقة القائمة الآن بين المسلمين والإسلام، كالعلاقة التي كانت بين أجيال النهضة الإسلامية وبين الإسلام، لصنعوا حضارة لهم كما صنع أولئك حضارة لهم، لكن لما كانت العلاقة بين الاسلام وبين هؤلاء وأولئك متباينة ومتخلفة، كان المردود الحضاري والعلمي والفكري والثقافي أيضا متباينا ومختلفا، وتبقى الحقيقة قائمة تحدث عن نفسها: ليست هناك صلة تذكر بين الإسلام وتخلف المسلمين

أما السبب في ترويج هذه الشبهة أو إنشائها وبخاصة عن المستشرقين هو الخلط بين الدين في العصور الوسطى بظروفه وملابساته وتطبيقاته الكنسية والبابوية وموقف هذا الدين بتلك الظروف والملابسات والتطبيقات، وبين الإسلام عموما، فهذا الخلط هو ما جعل التصور الغربي العام يأخذ ضد الإسلام نفس الموقف الذي أخذه من الدين الكنسي، وهذا الذي وقع من الخلط بين الإسلام وبين ما حدث في العصور الوسطى، مما تسبب في إصدار حكم غير صحيح على الإسلام

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: تأليف مجموعة من العلماء، إشراق وتقديم: د/محمود حمدي زقزوق، صادر عن وزارة الأوقاف، طـ: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، طـ سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، صـ٦٤٣

فالعلاقة بين الإسلام والعلم علاقة قوية تؤكدها كثير من الشواهد وتعززها كثير من الدلائل، وإن بيان هذه العلاقة بين الدين والعلم وأنها علاقة اتصال وليست علاقة انفصام وانفصال، لم يؤكده فقط علماء الإسلام، بل إن هذه الحقيقة كانت محل تأكيد وفي الوقت ذاته محل إجلال من جانب بعض الغربيين من المستشرقين، وقد كان من هؤلاء مراد هوفمان، الذي أخذ يتحدث بطلاقة عن منزلة العلم في الإسلام ودوره في الحرص على العلم والتأكيد عليه، حتى إنه أخذ يستعرض بعض النصوص الدينية من القرآن والسنة لبيان هذه العلاقة وقوتها، تحت عنوان (الإيمان والعلم) يقول مراد هوفمان " أما طلب العلم والظمأ إلى المعرفة، معرفة القرآن والسنة والتفقه في الدين، فذلك من أخص صفات المسلمين، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والقرآن يحث المسلمين في آيات متعددة على ضرورة طلب العلم، مستعينين بالله ليزدادوا علما، متوسلين بما منحهم من بصر وبصيرة، وقلوب وألباب، ونُهَى ووسائل إدراك، فيقول سبحانه {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤] {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤٤] {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [لقمان:٢٠] {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام:٥٠] وللمرء أن يرى في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق أول ما أوحي إلى النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، أذانا ينادي الإنسان إلى طلب العلم، وأقل مراتبه محو الأمية بتعلم القراءة والكتابة، فيقول أصدق القائلين آمراً {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١-٥]

إن المسلم العاقل يفكر في الله وفي خلق الله، فترى المسلمين من ذوي الألباب، يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، يسعون إلى الموضوعية سعيا، لا يميلون إلى الهوى بغيا، يدفعون الشك بالدليل واليقين، ولا يركنون أو يأخذون بمجرد الظنون والتخمين كما وصفهم رب العالمين

في ضوء هذا نتفهم طلب الرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- إلى كل مسلم ومسلمة، السعي الحثيث للتعلم، والأحاديث الصحيحة تبين أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، مهما بعدت الشقة حتى قيل ولو بالصين[١]، الأمر الذي يقاس اليوم من حيث بعد الشقة والعناء الذي يحيط بها على العربي آنذاك قبل ألف وأربعمئة عام برحلات الفضاء إلى القمر مثلا.

ولقد بلغ من تقدير الرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- للعلم والتعلم أنه قال ما معناه أن دم العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء، ودم العلماء أثقل في الميزان[٢]

(١) من ناحية اللفظ ليس هناك حديث بهذا اللفظ ولكن إذا كان الإسلام يحث على طلب العلم بتلك الكيفيات التي مرت بنا فإن هذا القول يكون صحيحا من ناحية المعنى

(٢) لعله يقصد الحديث الذي أخرجه ابن عبدالبر في جامعه بسنده عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

لقد وعى الصحابة طلب الرسول وعملوا به خاصة الخلفاء الأربعة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، وما أحسن رد علي بن أبي طالب على سؤال سأله عن مصدر علمه: أهو القرآن فحسب أم صحائف أخرى إلى جانبه؟ حيث قال لسائله: كتاب الله، وبصيرة نافذة، وصحيفة بها بيان من الرسول لثلاثة أمور، كما ورد في صحيح البخاري بسنده عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر "[1]،[2]

وبعد أن أماط هوفمان اللثام عن العلاقة الحقيقية بين العلم والدين، إذا به يستعرض أدلة وجود هذه العلاقة أو شواهدها وذلك من خلال إيراده بعض الإسهامات العلمية لبعض العلماء الذين أفرزتهم هذه العلاقة فكانوا نتاجا طيبا لجوهر العلاقة بين العلم والإسلام، فملؤوا الدنيا علما وفكرا وحكمة، ولو كانت العلاقة بين العلم والدين علاقة انفصامية ما وجدنا لهؤلاء من ذكر ولا أثر، لكن لأن علاقة الإسلام بالعلم علاقة اتصال ووئام فكان هؤلاء العلماء خير شاهد على قوة ومتانة العلاقة بين الدين والعلم، يقول هوفمان " هذا الظمأ إلى العلم، مقترنا باستعداد المسلم لاستخدام عقله، كانا القاعدة المنبسطة لازدهار العلوم الإسلامية مع مستهل القرن الثامن، ولقد ينبغي أن نجتزئ في هذا المضمار بذكر أربعة عشر معلما عالميا:

١. ابن فرناس (المتوفى عام ٨٨٨) والذي ينسب إليه استخدام أول وسيلة للطيران
٢. محمد بن موسى الخوارزمي (توفي عام ٨٤٦) مخترع علم الجبر، والذي اشتق من اسمه (اللوغاريموس أي اللوغاريتمات) تحريفا لاسم الخوارزمي (الخوارزموس أو الخوارزميات)
٣. أبوبكر الرازي (٨٦٤-٩٣٥) والذي ظل كتابه الرئيس في الطب (المنصوري) مرجع

=

-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ» انظر: جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ) تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، طـ: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، طـ الأولى، ١٤١٤هـ /١٩٩٤م، جـ١، صـ١٥٠

(١) الحديث في: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسننه وأيامه = صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، طـ: دار طوق النجاة، طـ الأولى سنة ١٤٢٢هـ، كتاب: الجهاد والسير، باب: فكاك الأسير، جـ٤، جـ٤، صـ٦٩

(٢) الإسلام كبديل: مراد هوفمان، طـ: مكتبة العبيكان - الرياض، طـ الثانية سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، صـ٦٥،٦٦ بتصرف بسيط

طلاب الطب قرونا في جامعات أوربا.

٤. الفيلسوف الطبيب ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) والتي ظلت موسوعته الطبية تستخدم في المعاهد العليا والجامعات الأوربية حتى القرن التاسع عشر.

٥. الحسن بن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩) مخترع ما يسمى بالحجرة المظلمة في البصريات

٦. العبقري العلم المُبَرِز في أكثر من مجال، مثلما كان جوته، أبوالريحان البيروني (٩٧٣-١٠٥٠) مؤرخ العلوم ورجل السياسة، وعالم السنسكريتية، العلامة في الفلك والمعرفة بالمعادن والصيدلة وغيرها.

٧. عمر الخيام (المتوفى بين ١٢١١ و ١١٣١) الشاعر الذي برع في الرياضيات والفلك، ومصلح التقويم الهندي بصورة أدق وأكثر انضباطا من التقويم الجريجوري الحالي، وذلك منذ عام ١٥٨٢

٨. الفيلسوف ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) الذي أثرت تعليقاته على أرسطو على تطور الفلسفة في أوربا تأثيرا كبيرا، فضلا عن ذلك كان هو مكتشف الكلف الشمسي (البقع السوداء في الشمس)

٩. الطبيب المصري ابن النفيس (المتوفى عام ١٢٨٨) مكتشف الدورة الدموية

١٠. ابن بطوطة الرحالة (ولد عام ١٣٠٤ وتوفي عام ١٣٦٨ أو ١٣٧٧) والذي يمكن أن يقارن بالرحالة ماركو باولو، ولقد جاب ابن بطوطة المعمورة حتى تمبكتو وبكين والفولجا.

١١. ابن خلدون الأندلسي الأصل (ولد بتونس عام ١٣٣٢ وتوفي بالقاهرة عام ١٤٠٦) وكتابه المقدمة غني عن البيان، وكذلك تأريخه للعالم في كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، والذي يعد بحق مؤسس علم الاجتماع، وكتابة التاريخ على أساس حديث مستندا إلى المصادر التاريخية ناقدا لها

١٢. الملاح المستكشف أحمد بن مجيد، عمدة الملاحين ومرجعهم فيما يتعلق بركوب البحار في القرن الخامس عشر

١٣. بيري رئيس (١٤٨٠-١٥٥٣) التركي الجغرافي أمير البحر، والذي وضع خرائط بحرية دقيقة لا تزال موضع الإعجاب، والتي يمكن مشاهدتها في مؤلفه (كتاب البحرية) وكذلك رفيقه

١٤. عالم البحار سيدي علي ريس (المتوفى عام ١٥٦٢) والذي مسح الشواطئ لأسيوية علميا، والذي أسهم في تطوير الفلك الملاحي "[١]

إذا طبيعة العلاقة بين العلم والدين هي التي أوجدت الحركة العلمية، وقوة هذه العلاقة هي التي أدت إلى ازدهار هذه الحركة في البيئة الإسلامية وبالتالي صنعت هذه

(١) المصدر السابق: صـ٦٦-٦٨

الحركة حضارة قوية أفادت منها سائر الحضارات الأخرى، وهذا ما أكد عليه فضيلة الدكتور الشيخ عبدالحليم محمود حين قال: "لقد أحدث الإسلام في الدنيا بموقفه هذا من العلم نهضة علمية، كان من ثمارها الحضارة الإسلامية التي كانت تسمى (البحث في الطبيعة وفي الكون) هذه التسمية الجميلة: (العلم بسنن الله الكونية) "[١]

وفي ثنايا حديث هوفمان عن شأن العلم في الإسلام ونشاط الحركة العلمية في ظله، نجده قد أشار إلى أن قوة الصلة والعلاقة بين العلم والإسلام جعلت من هذا الدين مشعل هداية أرسل أشعة الهداية العلمية في أنحاء الكرة الأرضية فاستفادت منها كل الحضارات لا سيما الحضارة الغربية التي أرست دعائم نهضتها على ما قدمته حضارة الإسلام لها من علم وفكر وثقافة، ثم ينفي هوفمان تلك المزاعم التي يحلو للبعض ترديدها بدافع من التعصب من كون أن العكس هو الذي حدث، أي أن المسلمين كانوا هم الذين أخذوا عن الغرب حضارتهم، فيصرح أن هذا قول أقرب إلى الهذيان منه التعقل، لأنه يجري على عكس السنن، يقول هوفمان " ويدل هذا البيان الموجز بأسماء الأعلام الأربعة عشر وحده على أن الغرب لم يرث الحضارة الهلينية، وإنما الشرق الإسلامي هو الذي ورثها وبعثها وطورها، ونظرا لتدفق العلوم والتكنولوجيا الناهضة في تلك الحضارة الإسلامية آنذاك، كان من المفهوم أن يسير التبادل الحضاري في العصور الوسطى في طريق ذي اتجاه واحد بأخذ الغرب عن الإسلام ليس العكس، أو على حد تعبير (مارشال هدجسون): لم يجد المسلمون لدى الغرب شيئا يذكر فيستحق أن يبذلوا جهدا ليتعلموه، وهكذا كان الغرب في تلك العلاقة مستوردا بحتا فحسب، سواء على الصعيد المادي أو المعنوي، ينسحب ذلك على طواحين الهواء وأغاني التروبادور، وأسلوب المعمار الغوطي في بناء الأقواس المدببة، وغير ذلك، هذا الغزو الحضاري الإسلامي العالمين أو بلغة العصر: الاستعمار الفكري، كما يحلو للبعض أن يسميه، ترك بصماته التي تحكي الكثير، في شكل رواسب لغوية وتعابير، ولم نزل حتى اليوم نتوسل بألفاظ عربية الأصل من مثل: أميرال (أمير البحر)، ألجبرا (الجبر)، صفر وبمعنى رقم و: شفرة (الصفر)، الملغم، الكحول (الغول)، العود والقيثارة، الكوقن (القبة) والموصلين والتعريفة "[٢]

وكان ممن أكد العلاقة الحقيقية بين الإسلام والعلم، جورج سارتون، وقد نقل إلينا د عبدالعظيم المطعني، كلام سارتون في موقف الإسلام من العلم، وكون الإسلام يشجع العلم ويحث عليه، ولولا ذلك ما رأيت كل هؤلاء العلماء المسلمين الذين أثروا الحقل العلمي بكثير من المؤلفات والنظريات العلمية التي كان لها أكبر الأثر في بعث

(١) موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة: د/عبدالحليم محمود، طـ: دار الرشاد – القاهرة، طـ الثانية سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، صـ٧٥

(٢) الإسلام كبديل: مراد هوفمان، صـ٦٨،٦٩

النهضة العلمية في العالم أجمع لا سيما في أوربا، يقول " أسهمت علوم وفلسفات علماء مسلمين في بعث النهضة الأوربية في شتى المجالات مثل ابن سينا، والرازي، والفارابي، وابن رشد، والغزالي، وابن الهيثم، وابن النفيس، وغيرهم كثيرون، وقد سجل هذا كله العلامة (جورج سارتون) في كتابه (رحلة العلم) أشاد فيه بجهود أكثر من عشرين عالما مسلما قادوا حركة العلم طوال سبعة قرون، من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلاديين، وقال - أي جورج سارتون -: إن العطاء العلمي خلال تلك القرون كان إسلاميا خالصا، حتى أصبح لزاما على كل من يريد المعرفة من غير العرب أن يتعلم اللغة العربية التي صارت مفتاح العلوم "[١]

فهذه الشهادة تقرر أن العطاء العلمي للحضارة الإسلامية كان السبب الأوحد في بعث النهضة الأوربية، لذلك كان لزاما على الغرب أن يعترف بهذا الجميل للشرقيين لا أن ينكروا ذلك جملة وتفصيلا، وقد كان هناك من الغربيين من اعترف بهذا وأقر بفضل الحضارة الإسلامية بل طالب غيره من الأوربيين أن يتشاركوا في هذا الاعتراف، ويأتي على رأس هؤلاء الدكتور (غريسيب) مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها، الذي أدلى بشهادة رائعة فيما يخص ذلك، فقد خطب في الطلاب المسلمين المبعوثين إلى ألمانيا، فكان مما قال " أيها الطلاب المسلمون الآن قد انعكس الأمر، فنحن الأوربيين يجب أن نؤدي ما علينا نحوكم، فما هذه العلوم إلا امتدادا لعلوم آبائكم وشرحا لمعارفهم ونظرياتهم، فلا تنسوا أيها الطلاب تاريخكم، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر، فما دام كتابكم المقدس - يعني القرآن - عنوان نهضتكم، ما يزال موجودا بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا المستقبل، ففي قرآنكم علم وثقافة، ونور ومعرفة، وسلام عليكم يا طلابنا اليوم، وإن كنا نحن طلابكم بالأمس "[٢]

وبجانب ما ورد في هذا النص من شهادة تحسب لهذا الرجل الغربي، فيها من الاعتراف بقيمة العلم في الإسلام، وأن كتاب المسلمين وهو القرآن الكريم كان له الفضل الأكبر في دعم الحركة العلمية في البيئة الإسلامية نظرا لما فيه من حث على العلم وتشجيع عليه، وعندما أنصت المسلمون لكتابهم انصاتا نظريا وعمليا وامتثلوا لما فيه صارت لهم تلك الملكة العلمية التي أسست لهم حضارة ملأ السمع والبصر أفادت منها كل الحضارات لا سيما الغرب، بجانب هذه الشهادة، نلمح ما ورد فيها من توصية هامة، فيها يوصي هذا العالم طلاب العلم والمعرفة من المسلمين أن يحذوا حذو آبائهم وأجدادهم في التمسك بالمصدر الذي تمسكوا به وكان منبع علمهم وثقافتهم ومعرفته، ومن ثم صارت

(١) افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد: د/عبدالعظيم المطعني، طـ: مكتبة وهبة - القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، صـ٤٢

(٢) المصدر السابق: صـ٩٧

لهم هذه النهضة العلمية، وإن اللاحق لن يتمكن من بلوغ هذه النهضة إلا إذا اقتفى أثر السابق، ويا ليت طلاب اليوم يعون هذه النصيحة ويدركوا أهميتها في وقتنا الحاضر.

إلى جانب هذه الشهادة السابقة وغيرها من الشهادات التي أوردناها فيما يخص الاعتراف بالعلاقة الحقيقة بين العلم والدين، وأن العلاقة بينهما علاقة اتصال وليست علاقة انفصال، أن هذه الشهادات تعد من قبيل النقد الذاتي الذي يقدمه الغربيون والمستشرقون، وقد كانوا يكيلون التهم للإسلام في شتى المجالات وبكافة الصور، أقول: إلى جانب هذه الشهادات أو النقود الذاتية، هناك شهادة للعالم الإنجليزي الكبير (بريفولت) كانت فيما يتعلق بالعلاقة بين العلم والدين، وهو فيها يؤكد - كسالفيه - أن العلاقة بينهما علاقة تكاملية وليست علاقة التناقض والتضاد، وأكبر شاهد أقامه بريفولت على ذلك، هو ذلك المنهج التجريبي الذي كان عماد الانطلاقة للنهضة الأوربية، هذا المنهج لم يكن من اختراع الأوربيين، ولم يكن - على وجه التحديد - من اكتشاف روجر بيكون، إنما كان من اكتشافات المسلمين، بدافع من دينهم الذي شجعهم على العلم والمعرفة، فكان المنهج التجريبي ما هو إلا ثمرة وترجمة حقيقية تعكس منزلة العلم في الإسلام ومكانته عند المسلمين، يقول بريفولت "إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده[(١)]، الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا "[(٢)]

فهذه شهادة صادقة جاءت على لسان عالم غربي هو بريفولت، وفيها من التصريح بفضل المكتشفات العلمية الإسلامية على الغرب ما فيها، وأن هذه المعطيات العلمية كانت ثمرة للمنهج الإسلامي الذي يشجع على طلب العلم والمعرفة، وفيها أيضا - أي شهادة بريفولت - الاعتراف بأن روجر بيكون وهو الذي يعزى إليه في الغرب ابتكار المنهج التجريبي، هو الذي يصرح أن الانفتاح على العلوم الإسلامية وتعلم اللغة العربية والوقوف على علوم العرب، كل هذا يمثل للغرب الطريق الوحيد للمعرفة، كذلك نلحظ في ثنايا هذه الشهادة، أن الهالة التي أحيط بها المنهج التجريبي في أوربا وخصوصا عندما يتعلق الحديث عنه بالحديث عن مكتشفيه، وقصر هذا الحديث عن روجر بيكون وفرنسيس بيكون، كل هذا

(١) يقصد فرنسيس بيكون، وهما من ينسب إليها في الغرب اكتشاف وابتكار المنهج التجريبي

(٢) موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة: د/عبدالحليم محمود، صـ٧٦،٧٧، ١٣٠

ما هو إلا مجرد اختزال للحقيقة والعدول بها عن وضعها الأصلي، لأن روجر بيكون وفرنسيس بيكون لم يكونا إلا مجرد ناقلين وليسا واضعين أو مبتكرين للمنهج التجريبي.

ويتابع بريفولت شهادته حول العلم والإسلام، يبين من خلالها مكانة العلم في الإسلام فيقول "لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية[١] على العالم الحديث ولكن ثماره بطيئة النضج، إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العلم العربي وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية "[٢]

ويسترسل بريفولت في شهادته مؤكدا على أن نواحي الازدهار العلمي الأوربي في كافة المجالات والأنشطة العلمية يمكن إرجاع هذه النواحي كلها إلى المؤثرات الثقافية والعلمية الإسلامية، يقول " فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون في نشأة الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي في العلوم الطبيعية وفي روح البحث العلمي "[٣]

وتبلغ شهادة بريفولت أوجها حين يقرر في ثناياها أن العلم الغربي لا يدين فقط للعلم الإسلامي بما أمده به من كشوف ونظريات، بل الأمر أكبر من هذا، إن العلم الغربي يدين للعلم الإسلامي بوجوده ذاته، ولولا العلم الإسلامي ما كان ثمة وجود للعلم الأوربي، يقول " إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم للثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه "[٤]

ثم يستعرض بريفولت بعضا من تاريخ العلم عند بعض الحضارات المختلفة ليدلل من خلال هذا الاستعراض أن العلم بمعناه الحقيقي لم يوجد إلا في الإسلام، وأن

---

(١) إن استخدام مصطلح العربية ونعت الحضارة به لا يعني أن ثمة فرقا بين العربية والإسلامية فالعرب لم يكن لهم حضارة إلا من خلال الإسلام، ولم ينجح العرب في تشييد صرح حضارة خاصة بهم إلا بعد اعتناقهم للإسلام، أما كون بعض الغربيين يعترف بالمنجزات العلمية للشرقيين عموما ثم تراه يستخدم لفظ العربية مقترنة مع الحضارة، فقد يكون من التمويه المقصود، لأنه مهما كان هناك من اعترافات إلا أن خلوص النية أمر لا يعلمه إلا الله

(٢) موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة: د/عبدالحليم محمود، صـ٧٧، ١٣٠، ١٣١

(٣) المصدر السابق: صـ٧٧،٧٨

(٤) موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة: د/عبدالحليم محمود، صـ٧٨، ١٣١

المناهج العلمية بمعناها العلمي المعروف لم تعرف إلا من خلال العلوم الإسلامية، أما الحضارات القديمة وما نشأ فيها من علوم ومناهج فقد كان يعتريها النقص ولم تكن علوما أو مناهج بالمعنى العلمي المعروف.

بيد أن بريفولت ينسب وجود العلم والمناهج العلمية بمعناها العلمي لها إلى الغرب، لكنه في الوقت ذاته يعترف أن الذي أدخل العلم ومناهجه بهذا المعنى إلى الغرب هم العرب، يقول " فالعالم القديم كما رأينا لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية، وقد نظم أهل اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، ولبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهليني، أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها أهل اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي[(١)] "[(٢)]

وفي سياق النقود الذاتية للمستشرقين فيما يتعلق بالعلاقة بين الإسلام والعلم، حري بنا أن نشير إلى ما أدلت به المستشرقة الإيطالية لورا فيشا، من حديث في غاية

(١) هذا الكلام شق منه فيه نظر، وهو المتعلق بأن العلم بمعناه الصحيح والمناهج العلمية بمعناها المعروف لم توجد في حضارة من الحضارات، هذا كلام فيه نظر لأن كل حضارة من الحضارات تتأثر وتؤثر فيما سبقها وفيما يلحقها، وبالتالي فإن المكتشفات العلمية وغيرها تكون قابلة للإضافة والتجديد والتطور، وهذا شأن العلم، فما اكتشفته الحضارة اليونانية – أو غيرها من الحضارات- من علوم وفلسفات ثم قدمته لمن جاء بعدها ثم أضاف اللاحق لهذه العلوم وأكسبها شيئا من التطور العلمي، ليس معنى ذلك أن السابق لم يقدم علما بالمعنى المعروف، بل إنه اجتهد قدر وسعه وقدر طاقته وقدر الإمكانات التي جاد بها زمنهم وجادت بها بيئتهم، وإن معطياته ومنجزاته تسمى علما وإن لم يكن هذا العلم تاما بعد، ودور اللاحق إزاء هذا السابق أحد أمرين، الأول: أن ننظر فيما قدمه ثم نضيف إليه بالتعديل أو الإضافة أو حتى بالحذف، الثاني: نشكرهم على ما قدموه لنا، وهنا نستحضر كلمة ابن رشد التي تلخص موقف اللاحق من السابق بالنبة للإرث العلمي والفكري والثقافي: ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم: فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم، أما الشق الذي يتعلق باستيراد الغرب للعلم بمعناه الصحيح من العرب فهذا صحيح، لأن الإسلام أضاف إلى العلم ما كانت تفتقده الحضارات السابقة.

(٢) موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة: د/عبدالحليم محمود، صـ٧٨، ١٣١، ١٣٢

الأهمية تميط به اللثام عن العلاقة الحقيقية بين الإسلام والعلم، وفي الوقت ذاته تدحض به تلك الشبه التي أثارها المستشرقون حول الإسلام في كونه يجافي العلم بل يشكل عقبة كؤود في طريق العلم، فنتفي لورا فيشا أمثال هذه الافتراءات من خلال بيانها أن الإسلام لا يدانيه دين آخر في إفساح مجال رحب للعقل يطلق فيه العنان لملكاته من التفكير والتأمل والتدبر والنظر، ويحثه على عدم إهمال تلك الملكات أو تعطيلها، ويجرم هذا التعطيل وذاك الإهمال سواء كان صدوره بيد الإنسان ذاته أم بيد غيره، فكيف بدين كهذا يكون عقبة في طريق العلم، تقول " إن دينا يتخذ من التأمل العقلاني أساسا له، ويفسح مثل هذا المجال العريض للعقل، ويأمر باصطناع تلك الملكة التي تعتبر أعظمها على الإطلاق، وهي ملكة الذكاء، مثل هذا الدين كيف يمكن أن يكون عقبة في طريق العلم "[1]

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فيشا فاغليري، نقله إلى العربية: منير البعلبكي، طـ: دار العلم للملايين، طـ الخامسة سنة ١٩٨١م، صـ١٢٨

المبحث الرابع
المجال العقدي والنقد الذاتي للاستشراق

إذا كانت المباحث السابقة في هذه الدراسة تحدثت عن النقد الذاتي للاستشراق في بعض المسائل التي لا تنتمي للحقل العقدي والتشريعي، إلا أنها كانت تمثل ركيزة أساسية في مثل هذه الدراسات النقدية، جاء هذا المبحث ليتناول النقود الذاتية فيما يتعلق بالمجال العقدي، حيث كان هذا المجال من أهم المجالات التي لاكتها ألسنة المستشرقين بالطعن وسطرت أقلامهم حولها كثيرا من الشبهات.

ثم يأتي دور هذا المبحث محاولا إماطة اللثام عن الحقيقة التي شوهتها تلك الألسنة وهذه الأقلام، وذلك عن طريق بيان الحق بواسطة بعض الألسنة والأقلام لثلة من المستشرقين والغربيين الذين جهروا بهذه الحقيقة.

- **الإسلام والتوحيد والنقد الذاتي للاستشراق:**

طالما كان الإسلام غصة في حلوق من كانت عبادتهم في أديانهم تقوم على غير التوحيد، لأن الإسلام جاء بعكس ما يدينون به من الشرك والوثنية التي تتصادم مع العقول والقلوب، جاء الإسلام بعقيدة صافية نقية تقوم على توحيد الله – جَلَّ وَعَلَا- تفرد الله بالتوحيد في ذاته وصفاته وأفعاله، لا تشرك أحدا من خلقه معه فيما خص ذاته به، عقيدة كهذه العقيدة لم تناسب كثيرا ممن كانوا يرزحون تحت طاغوت الشرك والوثنية، فراحوا يرمون الإسلام وعقيدته النقية الصافية بكثير من الشبه والطعون، وقد سولت لهم أفهامهم القميئة أن يُقَيِّمُوا الإسلام وعقديته بما قَيَّموا به دينهم وعقيدتهم، وأن يسقطوا عليه – أي الإسلام - كثيرا من الظروف والملابسات التي كانت تموج بها مجتمعاتهم من تطبيقات خاطئة وممارسات شاذة، وأن يخلطوا بين كل هذا وبين الإسلام، مما أدى إلى إصدار أحكام على الإسلام مجانبة للواقع ومجافية للحقيقة.

وحتى نحرر الموقف أقول: إن الاعتقاد هناك – أي في المسيحية – يخالف الاعتقاد هنا – أي في الإسلام - والعقيدة هناك تخالف العقيدة هنا، فالاعتقاد هناك كان شعاره: اعتقد وأنت أعمى، أي لا تفكر بل الأفضل للمُعتَقِد أن يلغي عقله وملكاته الفكرية، لأن الإيمان لا يلتقي بحال من الأحوال مع العقل، ومن هنا نشأ التعارض ووليه التصادم بين بين هذه العقيدة وبين العقل، لأن العقل رأى فيها ما يمثل حجرا عليه وتعطيلا لملكاته، وإقصاء لتفكيره، مما يؤدي إلى خلل كبير في المنتج الذي من المفترض أن يفرزه العقل وهو العلم، كل هذا أدى إلى تمرد العقل على هذه العقيدة لأنه رأى في التمرد عليها تحررا من قيود التخلف والتأخر وبراثن الجمود.

أما على الجانب الأخر الذي يمثله الإسلام فالاعتقاد فيه لا يلغي العقل بل يشجعه وينمي ملكاته، وليس أدل على ذلك مما قام به الإسلام في سبيل إعطاء العقل حريته

كاملة، من محاربة الكهانة والسدانة وإلغائها في الإسلام، تلك الأمور التي كانت تمثل حجر عثرة في طريق العقل عند بعض الملل الأخرى والتي شكلت السبب الرئيس في الصراع الذي قام بينها وبين العقل، فجاء الإسلام ليحارب هذه الكهانة حتى يعطي للعقل الحرية الكاملة في إعمال كافة ملكاته حتى لا يرسف في قيود التخلف والجمود، وأيضا ليكون فارقا هاما وحيويا بين الإسلام وغيره من الأديان يكون ركيزة هذا الفارق هو الاهتمام بالعقل وعدم تعطيل ملكاته من النظر والفكر

هذه الإشارة المقتضبة - فيما يتعلق بمكانة العقل في الإسلام – تمثل غيضا من فيض، كذلك نرى كثيرا من الإشارات التي تفرق بين لإسلام وغيره من الأديان في أن الإسلام حارب الكهانة وألغاها لأنه يعول على العقل ويعطي له الحرية الكاملة في فهم النصوص والنظر في الملكوت حتى يصل إلى الحقيقة التي يتغياها، لكن الكثير لم يفهم هذه النظرة الإسلامية وغض طرفه عن الموقف الذي أعلنه الإسلام من العقل، وبناء عليه فإنه راح يفسر العلاقة بين الإسلام والعقل على أساس العلاقة التي كانت قائمة بين الملل الأخرى والعقل، وراح ينظر للعقيدة في الإسلام كما نظر للعقيدة في هذه الملل الأخرى، وللأسف كان هذا الخلط من الأسباب الرئيسة للتصور الغربي السيء للإسلام، الذي أخذ منذ البداية موقفا معاديا من دين الإسلام، لهذا وغيره كان الهجوم على عقيدة الإسلام الصافية من جانب المستشرقين والغربيين عموما، بيد أن ثلة منهم جهروا بصفاء هذه العقيدة ونقائها عن عقيدة التوحيد يتحدث (كلود إيتان سافاري) في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم، فيقول " أسس محمد ديانة عالمية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة، ويعاقب على الرذيلة، فالغربي المتنور وإن لم يعترف بنبوته، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ "[١]

ففي هذا النص اعتراف بحقيقة الإسلام وجوهر عقيدته التي تقوم على التوحيد، وأن التوحيد فقط هو الذي يناسب العقول التي لم تتلوث بملوثات التقليد والتبعية والخمول، وأيضا يناسب القلوب التي لم تغلق بما ران عليها من غبار التحجر والأفول.

ثم يأتي مستشرق آخر هو (ليسنج) الذي يكتب للأوربيين عن الإسلام يشرح لهم حقيقته وجوهره وما انطوت عليه عقيدته بل وتشريعاته من مبادئ وقيم تناسب العقول والقلوب، فيقول " إن الإسلام دين لا يستطيع الحكم عليه إلا بعد دراسته دراسة جيدة، ومن لم يفعل ذلك فلا يستطيع فهمه .. ويتابع فيقول: انظر إلى قانون محمد ماذا تجد فيه مما لا يتفق مع العقل؟ المسلمون يؤمنون بإله واحد، وبالأخرة حيث الحساب والثواب والعقاب، من يعمل خيرا يجد خيرا، ومن يعمل شرا جزاؤه العذاب، وهذا منطق العقل "[٢]

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ٢٣١

(٢) الغرب والإسلام: رجب البنا، طـ: دار المعارف – القاهرة، طـ سنة ١٩٩٧م، صـ١٥٤،١٥٥ بتصرف بسيط

يقر هذا المستشرق بأن الإسلام دين بسيط لا تعقيد فيه ولا تركيب على العكس من أديان أخرى كثيرة يشوبها الغموض والتعقيد وتفتقد للبساطة والتوضيح، ولا شك أن دينا كهذا الدين يقوم على البساطة التي تعني عنده التوحيد أدعى للقبول وأرجى لموافقة العقول.

ثم يؤكد (ليسنج) هذا التقرير فيقول " فالإسلام دين بسيط ليس فيه تعقيدات ولا قضايا محيرة، الإسلام دين يسهل الإقناع به دون معجزات، وكل من يستعمل عقله لا بد أن يتفق مع الإسلام "[١]

والقول بأن عقيدة الإسلام عقيدة بسيطة، أي أنها تعطي تصورا واضحا عن مفهوم عقيدة الألوهية، لا يشوبه تعقيد أو يعتريه غموض، وبالتالي فكل إنسان مهما قل حظه من الناحية العقلية فهو يستطيع أن يتوصل إلى ألوهية الله لهذا الكون.

عقيدة الإسلام جاءت لتحارب الشرك بكل أنواعه، جاءت لتهدم الوثنية بكافة أشكالها، حتى تعبد الطريق أمام العقل وتذلله له من كل ما من شأنه أن يحجر على ملكاته أو يضعف من مقوماته، وقد شهد بهذا أساطين المستشرقين، منهم برنارد لويس الذي أشار أن محاربة الإسلام للشرك والوثنية بكافة أشكالها وأنواعها يكاد يكون شيئا تفرد به الإسلام عن سائر الأديان، ويعلمه كل باحث منصف، حيث قال " كل باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- وكيف انتصر النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية "[٢]

فعقيدة التوحيد في الإسلام عقيدة واضحة لا تناقض العقل والفكر، وتتسق مع الفطرة السوية وتتوافق مع العقل الصريح، كل هذه المميزات لعقيدة التوحيد الإسلامية جعل غير من يدينون بها يشهدون لها بتأثيرها على معتنقيها، ورد في موسوعة بيان الإسلام عن (أسقف لوفروا) قوله " لا يستطيع أحد خالط المسلمين لأول مرة ألا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم، فإنك حيثما كنت – سواء أوجدت في شارع مطروق، أو محطة سكة حديدية، أو في حقل – كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلا ليس عليه أدنى مسحة للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائنا ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين "[٣]

فعقيدة الإسلام تعكس على أتباعها ما تنضح به من الصفاء وما تتسم به من

---

(١) المصدر السابق: صـ١٥٥

(٢) نقلا عن: العبادة في الإسلام: يوسف القرضاوي، طـ: مكتبة وهبة – القاهرة، طـ الرابعة والعشرون سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، صـ١٥٢

(٣) موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات، القسم الأول – القرآن الكريم، إعداد: نخبة من كبار العلماء، جـ٦، صـ١٠٤

النقاء، وقد صرح المستشرقون بذلكم النقاء والصفاء الذي اتسمت به عقيدة التوحيد في الإسلام، وكان من هؤلاء لوبون، الذي صرح بأن الإسلام بلغ من صفاء ونقاء عقيدته ما لم يبلغه دين آخر، فقال " الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولاسيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام، مهيمن على كل شيء، ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسهم، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم "[1]

- **القرآن الكريم والنقد الذاتي للاستشراق**

طالما كان للمستشرقين موقف من القرآن الكريم، وهذا ليس بمستغرب من جانبهم، فقد راحوا يطعنون في كتاب الله بكل السبل وكافة الوسائل، وذلك لأنهم يعلمون أنهم لو نجحوا في ذلك لكان نجاحا لهم في القضاء على الدين بأسره، لأن القرآن يمثل المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي، ولم لم يحققوا هذا الهدف الرئيس فإنهم على الأقل سيثيروا الشكوك عند المسلمين في أمور دينهم وذلك بإثارة الشبهات حول هذا المصدر الأصيل.

ومن ثم فإننا لو رحنا نبحث عن منهج المستشرقين ووازعهم في إثارة تلك الشبهات لتبين لنا جليا أن وازعهم هو خبث النية وسوء الطوية الذي يتمحور حول محاولة صرف المسلمين عن دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

أما المنهج، فهو يعتمد على إثارة الطعون والشكوك حول هذا المصدر دون أن يستند هذا المنهج إلى أدنى مسحة معرفة أو أثارة من علم، وأحب أن أشير – في هذا المقام - إلى أن هذا المنهج ليس خاصا بالقرآن الكريم فقط، بل هو منهج عام تتسم به الدراسات الاستشراقية في معظم الحقول المعرفية، لاسيما عندما يتعلق الأمر بإثارة الشكوك والشبهات.

عن هذا المنهج وذلكم الوازع ورد في موسوعة بيان الإسلام ما نصه: "وللمستشرقين في كل جانب من جوانب الإسلام، وفي كل فرع من فروع المعرفة الإسلامية، دعاوٍ عريضة دفع إليها أحد أمرين أو كلاهما:

الأول: سوء الفهم لدين الإسلام، ولغته التي نزل بها كتابه، وجاءت بها أحاديث نبيه، وكتبت بها مؤلفات علمائه، وهم – لعجمتهم وغربتهم عنها – لا يتذوقونها، ولا يدركون أسرار تعبيرها وتنوع دلالاتها.

الثاني: سوء النية والقصد إلى البحث عن عورات يشنعون بها، ونقاط ضعف يسوغون بها ما يعتقدونه من دعوى بشرية القرآن، وعدم صدق نبوة محمد -

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ١٣١

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهم يقرؤون تراثنا ويدرسونه بروح المتعصب الباحث عن المطاعن، لا بروح الباحث عن الحق، فهم قد كونوا فكرة سابقة عن الإسلام وكتابه ونبيه ورجاله وتاريخه، وهمهم في دراسة تراث الإسلام أن يعثروا على أدلة توافق فكرتهم، فإن لم يجدوا الأدلة - كما هو الواقع - تصيدوا الشبهات، فإن أعيتهم الشبهات لفقوا من المصادر الضعيفة، والأقوال المردودة، والروايات المنكرة ما يشوشون به ويبهرجون "[1]

أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم على وجه الخصوص، فقد كان للقرآن نصيب كبير من الدراسات الاستشراقية التي تهدف إلى إثارة الشبهات حوله، ويُظهر اهتمام المستشرقين بإثارة الشبهات حول القرآن الكريم، هذا التنوع الهائل من الشبهات، فلم تكن شبهاتهم في إطار واحد أو في باب واحد بل تنوعت حتى تناولت كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، وقد عقد أحد الباحثين دراسة علمية حول هذا التنوع، وبعد استقراء هذه الدراسة تبين لنا أن شبهات المستشرقين حول القرآن تناولت المجالات والحقول المعرفية الأتية:

١. هناك شبهات أثارها المستشرقون حول مصدر القرآن الكريم، ما بين قائل: أن مصدر القرآن مصدر وثني، وما بين قائل: أن الحنفية تعد المصدر الأصلي للقرآن، وآخرون منهم يذهبون إلى أن الديانات القديمة كالزرادشتية والهندية والصابئة تمثل مصدرا أصيلا للقرآن الكريم، وطائفة منهم ذهبت إلى أن القرآن الكريم يرجع في أصوله إلى اليهودية والنصرانية
٢. نوع آخر من الشبهات أثاره المستشرقون حول نص القرآن الكريم، فاعتبر بعضهم أن النص القرآني ليس وحيا إلهيا، إنما هو ظاهرة ممن الممكن أن تفسر بعدة ظواهر: فمنهم من عدها وحيا نفسيا أو إلهاما سمعيا، ومنهم من عدها نتيجة انفعالات عاطفية طاغية على نفس محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نتج عنها هذا القرآن، ومنهم من زعم أنها تعود لأسباب طبيعية عادية كباعثة التنويم الذاتي، ومنهم من زعم أنها كانت نتيجة تجربة ذهنية فكرية تحصل نتيجة طول تأمل وتفكر، ومنهم من زعم أنها حالة كالحالة التي تعتري الكهنة والمنجمين، ومنهم من زعم أنها حالة من حالات الصرع والهستريا، ومنهم من تطرق إلى النص القرآني من ناحية توثيقه وحفظه، فأثاروا الشبهات حول تعرض النص القرآن للزيادة والنقص، إذ إنهم يزعمون - والزعم مطية الكذب - أن الوسائل الأولية التي كتب بها تدعو للريبة في بقاء النص الأصلي سليما دون أن يتعرض للزيادة والنقصان، وكذلك أثارت طائفة منهم الشبهات حول اختلاف مصاحف الصحابة، معتبرين هذا

(١) موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات، القسم الأول - القرآن الكريم، جـ٦، صـ١٠٠،١٠١

الاختلاف دليل على اضطراب القرآن وتناقضه، كل هذا وغيره ليؤكدوا على شيء رئيس ألا وهو أن مصدر القرآن بشري وليس إلهي.

٣. نوع ثالث من الشبهات أثاره المستشرقون حول القرآن الكريم تتعلق بجمعه، حيث حاولوا في هذا النوع من الشبهات إثبات عدم جمع القرآن الكريم في حياته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأن ما حصل من جمع له في حياة أبي بكر وعثمان كان لأغراض خاصة وبطرق لا تؤكد سلامته من الزيادة والنقص وعموم الاضطراب.

٤. نوع آخر من الشبهات أثاره المستشرقون حول كتاب الله تتعلق بشكل القرآن الكريم ومضمونه، كشبهة التجزئة، ومعنى كلمة السورة، والحروف المقطعة، وترتيب السور، وغير ذلك.

٥. شبهات تتعلق بالقراءات القرآنية، وقد تقولوا في هذه الشبهة أن سبب الاختلاف في القراءات يرجع إلى الأخطاء التي ارتكبها النساخ أثناء كتابتهم للقرآن الكريم، وأيضا للحرية الفردية التي كان يتمتع بها القارئ أثناء التلاوة!

٦. شبهات تتعلق بالأسلوب القرآني، وفيها تكلموا عن المكي والمدني في القرآن، وأسلوب القصة القرآنية، وشبهتهم حول الكلمة القرآنية فيما يتعلق بقضية التعريب، وكذا شبهاتهم حول الفاصلة القرآنية، وهم يرومون من وراء هذا النوع من الشبهات إلى إثبات أن القرآن من تأليف محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

٧. شبهات أثارها المستشرقون تتعلق بإعجاز القرآن الكريم، وأن القرآن ليس آية في الفصاحة والبلاغة، وأنه متضارب متعارض.

٨. شبهات أثارها المستشرقون حول تفسير القرآن الكريم وأنواع التفسير في القرآن، فقد أثاروا الشبه حول التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور وغير ذلك من أنواع التفسير[1]

وبالرغم من تنوع المجالات والحقول المعرفية التي خاض فيها المستشرقون للطعن في القرآن الكريم، إلا أن هذا لم يمنع أن تكون هناك نقودا ذاتية قام بها بعض المستشرقين ينفون من خلالها جل هذه الشبهات وتلك الطعون التي أثارها أضرابهم

(١) استفدنا هذا الفهم من خلال النظر في كتاب: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد: د/عمر بن إبراهيم رضوان، طـ: دار طيبة – الرياض، طـ الأولى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، جـ١، صـ٩ وما بعدها بتصرف، وانظر أيضا في هذا الباب: المستشرقون والقرآن دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه: د/إبراهيم عوض، طـ: مكتبة زهراء الشرق – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، وانظر: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية: د/محمد محمد أبوليلة، طـ: دار النشر للجامعات – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، المستشرقون والقرآن دراسة نقدية لمناهج المستشرقين: عمر لطفي العالم، طـ: مركز دراسات العالم الإسلامي، طـ الأولى سنة ١٩٩١م، المستشرقون والقرآن: د/محمد أمين حسن محمد بني عامر، طـ: دار الأمل- الأردن، طـ الأولى سنة ٢٠٠٤م

نحو القرآن الكريم.

ففيما يتعلق بالشبه التي أثارها المستشرقون حول النص القرآني، وأنهم يرومون من ورائها إلى إثبات الاضطراب في هذا النص وأنه تعرض للتحريف سواء بالزيادة أو النقصان، في مقابل هذا نرى جملة من طائفة المستشرقين ينفون هذه الاتهامات ويشهدون للقرآن الكريم بكماله وتمامه وخلوه من أي اضطراب قد يعتري النصوص البشرية، لأن نصه ليس من قبيل هذه النصوص بل هو نص إلهي، يقول د. إبراهيم عوض في دائرة المعارف الاستشراقية " أكد عدد من المستشرقين، مثل سير وليم موير، وتوماس باتريك هيوز، أن القرآن لم يحذف منه أي شيء "[١]

وفيما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم -هذا الحقل الذي ألقى فيه المسترقون كثيرا من شبهاتهم- وبخاصة الإعجاز الغيبي، هذا الشق الإعجازي نرى أحد المستشرقين -بالرغم من أنه كان من أشدهم إثارة للشبهات والطعون- يستدل من خلاله بعدم بشرية النص القرآني، وأن هذا النص وحي إلهي، لأن الحديث عن أمور غيبية لاسيما التي كان تسلسلها ناحية الماضي، لا يمكن أن يخبر بها أحد لم يعاينها ولم يسمع بها، إلا إذا كان هناك اتصال بالسماء، عن هذا يحدثنا د/ إبراهيم عوض عن مقالة المستشرق الدنماركي فرانتس بوهل، فيقول "ويرى بوهل فيما جاء في القرآن من أن عدم مشاهدة النبي بعض الحوادث التاريخية القديمة، كحادثة إلقاء زكريا ورجال المعبد أقلامهم اقتراعا لمعرفة من منهم يكفل مريم، هو دليل على أن ما رواه عن هذا الأمر وحي إلهي"[٢]

وبالرغم من أن هذا المستشرق كان من أشد المستشرقين إثارة للشبهات والطعون، إلا أن الله أنطقه بالحق، فنراه يشهد للقرآن بإعجازه الغيبي ويعد هذا دليلا على أنه وحي من الله، ثم نراه في موطن آخر يؤكد على هذا بحيث إنه ينفي أن يكون القرآن الكريم قد ألفه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من واقع إطلاعه على ثقافات الأمم الأخرى، فينقل د إبراهيم عوض قوله في هذا، ونصه " أبرز بوهل في مادة (محمد) عدم معرفة النبي -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بالعبرية مرتين: مرة في قوله: إن اليهود في المدينة لم يشاؤوا أن يردوا على اتهام القرآن لهم بتحريف كتبهم، لأن محمدا لم يكن يعرف العبرية التي كتبت بها هذه الكتب، فوجدوا أنه لا فائدة من محاولة إثبات برائتهم، والثانية: حين أشار متهكما إلى أن هرقل لم يكن قادرا على أن يفهم القرآن مثلما كان الرسول عاجزا عن فهم كتب اليهود، وذلك بسبب حاجز اللغة "[٣]

---

(١) دائرة المعارف الاستشراقية أضاليل وأباطيل: د/إبراهيم عوض، طـ: مكتبة البلد الأمين – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، صـ١٩

(٢) المصدر السابق: صـ١٣

(٣) دائرة المعارف الاستشراقية أضاليل وأباطيل: د/إبراهيم عوض، هامش صـ٨٩

نرى بوهل في هذا النص ينفي عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- معرفته بلغات الأمم الأخرى وبناء عليه فهو لم يكن مطلعا على علومهم وثقافاتهم، إذ كيف يتسنى له ذلك وهو لا يعلم لغاتهم، واللغة هي مفتاح العلوم، الأمر الذي يترتب عليه انتفاء تلك الشبهة التي تتهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه أدخل على القرآن ما ليس منه أو أنه قام بتلفيق القرآن من واقع اطلاعه على ثقافات وحضارات الأمم الأخرى.

ويبدوا أن كثيرا من المستشرقين – فيما يتعلق بالقرآن الكريم – كانت لهم نقود ذاتية، ربما بهرتهم لغة القرآن الكريم، وتملك إعجازه نواصيهم فلم يملكوا إلا أن يجهروا بحقيقة وحيه ومصدره الإلهي، وإلا بأي شيء نفسر هذا القدر غير القليل من هذه النقود الذاتية التي هي أشبه بالمراجعات.

يعترف أحد المستشرقين بأن آراء المستشرقين عن الإسلام عموما والقرآن خصوصا كانت آراء متحاملة تفتقر إلى المصداقية وتفتقد النزاهة المطلوبة في البحث العلمي، يقول المستشرق الألماني j.fueck " على كل حال لقد أصبح النظر في عدم أصالة الإسلام واعتماده على الأديان السابقة موضة بين عموم المستشرقين "[١]

ثم يؤكد يوهان فوك هذا المعنى، بيد أنه يركز على جانب الدراسات الاستشراقية التي عنيت بإثارة الشبهات المختلفة حول القرآن الكريم، فيقول " لقد فقدت دراسات المستشرقين الكبار صلتها بأفكار القرآن المتميزة والرصينة، وارتضت باجترار البحث في تبعية كل جزئية قرآنية - بصرف النظر عن كونها فكرة دينية، أو تعبيرا، أو مصطلحا، أو حقيقة تشريعية، أو قصة، أو موضوعا، أو كلمة مفردة، أو أنماطا متنوعة من التراكيب – وإرجاعها إلى مصادرها في الأديان السابقة كلما كان ذلك ممكنا، بهدف شطر الصورة الحية المتكاملة للرسول والقرآن إلى ألف نتفة وجذاذة "[٢]

نرى يوهان فوك في هذا النص وكأنه يقيم الدراسات الاستشراقية التي عنيت بإثارة الشبه حول الإسلام عموما والقرآن الكريم خصوصا، بأن هذا النوع من الدراسات يفتقد للمصداقية ونزاهة البحث العلمي، إذ إنها تعتمد على ما يجانب البحث العلمي الحقيقي من الحيدة والنزاهة وأمانة النقل وأنها استعاضت عن هذا كله: التلفيق، والاجتزاء، وبتر السياق، أو على حد تعبيره شطر الصورة الحية المتكاملة للنص القرآني.

وفي هذا المقام نرى مستشرقا آخر يسجل اعتراضه على هذا النوع من هذه الدراسات الاستشراقية، وبخاصة تلك التي تحرص على إثبات تلفيق النبي -

(١) الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، طـ: دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، صـ١٢٣

(٢) المصدر السابق: صـ١٢٣

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للقرآن، حتى يخرجوا بنتيجة مفادها، أن التنافر في القرآن أمر واقع لأنه من تأليف بشر.

يسخر المستشرق السويدي tor Andrae من هذا الاتجاه الاستشراقي فيقول " كأن المهمة الكبرى للمستشرقين الدارسين لشخص الرسول، هي محاولة فهم كيف أن الرسول – بتأثير روح البيئة المحيطة – قد لفق أو زور أشتاتا عديدة شديدة التنافر في كل واحد هو القرآن "[١]

ويؤكد المستشرق الألماني يوهان فوك على هذا الاتجاه العدائي لدى المستشرقين والذي أثر سلبا على تصور الغرب للقرآن، وأن هذه الدراسات قد ساهمت بشكل أو بآخر في تكريس مفهوم التلفيق عن القرآن في أذهان الغربيين، يقول " لقد صبغ الجدل المضاد للإسلام – في الغرب – صورة محمد بلون حالك السواد، ولقد طغت أحكامهم على المجال كله، ولقد أضاف مستشرقوا القرن التاسع عشر لحنا جديدا إلى عزف هذه الجوقة، وذلك بتأكيدهم على تبعية الرسول محمد واعتماده على الأديان السابقة "[٢]

ويزيد يوهان فوك الأمر تأكيدا حين يقرر أن هذه الدراسات الاستشراقية المعنية بالدراسات القرآنية تجسد محاولة من جانب المستشرقين لرد أصول القرآن إلى غير الوحي الإلهي والاستعاضة عن ذلك بأصول يهودية أو نصرانية أو حتى وثنية، يتغيون من وراء ذلك – على حد تعبيره – تمزيق القرآن الكريم، يقول " هذه المحاولات تريد أن تمزق القرآن – فيما يتعلق بأصوله ومصادره – إلى عدد لا حصر له من أحجار الموزايكو الصغيرة والتي لا توجد رابطة داخلية تجمعها أبدا "[٣]

وتتوالى النقود الذاتية من جانب بعض المستشرقين فيما يتعلق بأصالة القرآن الكريم وإرجاع مصدره إلى الوحي الإلهي، ونفي ما أثاره المستشرقون حوله من كل ما من شأنه أن يرفع عنه القداسة، في هذا المقام نطالع نقدا ذاتيا يتعلق بنفي ما ادعاه المستشرقون من بشرية مصدر القرآن الكريم، وقد عولوا في هذا النقد على ما ورد في القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا من الزمان من إشارات علمية، كان من المحال أن تكتشف في هذا الوقت بطرق البحث العلمي وما إلى ذلك من الوسائل التي أتاحها العلم الآن، وبهذه الوسائل تم التحقق من صدق هذه الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم، وبناء عليه فقد تناولت هذه النقود تلك الإشارات وجعلت منها دليلا لا يتطرق إليه الشك بحال من الأحوال على ربانية هذا الكتاب، وقد أشار موريس بوكاي إلى أن ما ورد في القرآن من إشارات علمية لم تكن لتعرف بواسطة الإنسان في هذا الوقت، لكن بعد كر الأعوام ومرور الأزمان اكتشف العلم صحة هذه الإشارات، وقد وقف

(١) الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، صـ١٢٣

(٢) المصدر السابق: صـ١٢٤

(٣) الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، صـ١٢٥

موريس بوكاي بنفسه على صحة هذه الإشارات من خلال العكوف على دراسة القرآن الكريم، الأمر الذي لم يتوفر في كتاب سماوي آخر، مما يجعل القرآن متفردا في الصدق، يقول " إن القرآن الذي يدعو إلى تطوير العلم، يحوي العديد من النظرات عن أحداث طبيعية مع تفصيلات موضحة لها تبدو شديدة الاتفاق مع معطيات العلم الحديث، وليس في الوحي اليهودي – المسيحي، مثيل لهذا النوع "[١]

وفي موطن آخر يعبر موريس بوكاي عن دهشته مما وجده من صدق القرآن الكريم فيما يتعلق بالإشارات العلمية الواردة فيه أو على حد تعبيره الصورة العلمية، ثم يقرر أن هذه الإشارات كان من المحال أن توجد في نص مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا إلا أن يكون ربانيا، يقول " لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن إلى حد بعيد، لأني لم أكن أظن أبدا أنه يمكن حتى هذا الزمن أن نكتشف في نص مكتوب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، عددا من اليقينات المتصلة بموضوعات شديدة التنوع ومتفقة تماما مع المعارف العلمية الحديثة "[٢]

ثم تأخذ الدهشة بلب بوكاي حين يطالع في القرآن الكريم هذه الموضوعات العلمية المختلفة مثل الخلق والفلك وغير ذلك من الموضوعات التي تحدث عنها القرآن بأسلوب اتفق مع المعطيات العلمية الحديثة، وأمام هذه الدهشة راح بوكاي يتسائل ويفرض الفروض حتى يتحقق من صدق نتيجة معينة وهي: هل الأسلوب القرآني الذي تناول هذه الموضوعات ثم اتفاقها مع المعطيات العلمية الحديثة يسمح بأن نقول: أن محمدا -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- ألف القرآن؟ أم أن القرآن رباني المصدر، يتحدث بوكاي عن ذلك فيقول "والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الأولى، هو غزارة الموضوعات المطروحة، مثل الخلق، والفلك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض وجنس الحيوان والنبات، وتكاثر الإنسان، تلك الأمور التي نجد عنها في التوراة دون نص القرآن أخطاء علمية كبيرة، تحملني على التساؤل: إذا كان كاتب القرآن بشرا، فكيف أمكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت أنه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة؟ "[٣]

ولكي يتثبت بوكاي من الإجابة على هذا التساؤل، أخذ يفرض الفروض ويتحقق منها حتى يصل إلى نتيجة يقينية، ثم يعلن علينا بوكاي النتيجة التي وصل إليها بعد التحقق من فروضه، وكانت النتيجة كما قال " إن هذه الملاحظة الأخيرة تجعل افتراض من يرون محمدا - -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- كاتبا للقرآن مرفوضا "[٤]

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، ترجمة: الشيخ/حسن خالد، طـ: المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، طـ الثالثة سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م، صـ١٤٤

(٢) المصدر السابق: صـ١٤٧

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، صـ١٤٩

(٤) المصدر السابق: صـ١٥٤

إن التطواف حول ما كتبه بوكاي عن القرآن الكريم والمقارنة بينه وبين التوراة والإنجيل فيما يتعلق بالعلم الحديث، وكان هذا موضوع كتابه، قد أوقف بوكاي على حقائق كثيرة، منها:

- وجود فرق شاسع بين الإشارات العلمية الواردة في القرآن وبين التواراة والإنجيل التي قد تكون جاءت خالية تماما من أي إشارة علمية
- القطع بصدق ما ورد في القرآن الكريم بناء على التحققات التي قام بها بوكاي
- أن بوكاي لم يتوقف عند التحقق من صدق القرآن الكريم فيما يتعلق بالإشارات العلمية الواردة فيه واعتبار ذلك من أقوى الأدلة على ربانية هذا الكتاب ومن ثم إعلان هذه النتيجة، بل إن بوكاي تجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى وهي: اعتبار أن الإشارات العلمية الواردة في القرآن أقوى في دلالتها من المعطيات العلمية الحديثة بحيث إن نقد هذه المعطيات العلمية قد يكون مقبولا، ولا يكون مقبولا بحال من الأحوال إذا توجه النقد إلى ما ورد في القرآن، وقد ذهب بوكاي إلى هذا بناء على أمرين:

الأول: القطع بربانية القرآن الكريم، ومن ثم فإن التشكيك فيما هو رباني لا يصح، بينما التشكيك فيما هو بشري أمر جائز

الثاني: أن الإشارات العلمية الواردة في القرآن لم يكن مجيئها في القرآن على أنها معلومات علمية بالمعنى الأكاديمي، إذ إنها ورادة في كتاب هداية في المقام الأول، ثم هي مجرد إشارات لمكتشفات علمية، لكنها صادقة من منطلق مصدرها الرباني، ولم تكن هذه الإشارات قد تحدثت في تفاصيل وجزئيات هذه المكتشفات، ولكنها تبقى إشارات، أما المعطيات العلمية الحديثة أو المكتشفات فهي تدخل في صميم الميدان العلمي وينطبق عليها المعنى الأكاديمي، ومن ثم فهي قابلة للبحث والتحقيق والتثبت من صحة الفروض وعدمه، بالإضافة إلى أنها تنتمي لميدان البحث التجريبي القائم على الملاحظات الحسية، وهي أمور قد تكون نسبية في أغلب، كل هذا وغيره يجعل هذه المكتشفات[1] قابلة للنقد، بخلاف الإشارات الواردة في القرآن الكريم، وقد عبر عن ذلك في نهاية الدراسة بقوله " الفرق قد ظهر واضحا مدهشا بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها في حالة مقارنتها

(١) الحديث هنا عن المكتشفات العلمية وهي في مراحل التحقق من صدقها، أم المكتشفات التي تجاوزت هذه المرحلة وتم التحقق من صدقها يقينا فإنها تنتقل إلى ما يسمى بالنظرية العلمية، لذلك لا يسارع إلى إلحاق أي اكتشاف علمي بأنه ورد في القرآن إلا بعد التحقق والتأكد والتثبت من هذا الاكتشاف ثم التأكد من صدقه يقينا وأصبح نظرية علمية غير قابلة للتغيير، هنا فقط نستطيع نسبته إلى القرآن إن كان قد جاء بشأنه إشارة في القرآن

بمعطيات العلم الحديث "[١]

وفي سياق النقد الذاتي للمستشرقين فيما يتعلق بالقرآن الكريم، نجد منهم من تحدث عن تلك الترجمات المشوهة والمبتورة للقرآن الكريم والتي اعتمدها الغرب في عصوره المختلفة حتى يصدر صورة مشوهة ومبتورة عن الإسلام عموما وعن كتابه خصوصا، يأتي على رأس هؤلاء، آنا ماريا شميل، التي تحدثت في مقدمتها لكتاب: الإسلام كبديل لمراد هوفمان عن هذه الترجمات المنقوصة للقرآن الكريم، معللة نقصها بأن لغة القرآن وما حوته من نظم ودقة وسبك للمعاني وما انطوت عليه لغة القرآن من جرس موسيقي وغير ذلك من هذه الأنماط التي لا توجد إلا في اللغة العربية، كل ذلك يحول بين القرآن وبين ترجمته إلى أي لغة أخرى، إذ أي لغة أخرى تفتقر وتفتقد لما تحويه اللغة العربية من هذه الملكات مما يصعب بل ويحيل نقل المعنى القرآني بغير لغته العربية التي نزل بها، تحدثنا آنا ماريا شميل عن هذا فتقول "لقد نزل القرآن فيما بين عامي: ٦١٠ و ٦٣٢ في مكة ثم المدينة، وما من مترجم يستطيع أن يترجمه دون صعوبة بالغة، المسلم لا يشك في أن القرآن كلمة الله نزله بلسان عربي مبين على النبي الأمين، وأن ترجمته لا يمكن إلا أن تكون تقريبية ضمنية لا تضارع الأصل، إذ لا أحد مهما بلغ من الحذق والكفاءة يقدر أن يترجم ذلك الإعجاز الإلهي إلى لغة أخرى، وإلا فأين المترجم الذي يزعم ذلك؟! إن الإيقاع اللفظي والموسيقى الداخلية وتعدد طبقات النبر همسا وجهرا، وغير ذلك مما تحفل به اللغة العربية، ناهيك بلغة القرآن ونظمه المعجز، كل ذلك يجعل النقل من العربية إلى غيرها عسيرا "[٢] ثم تطالعنا ماشيل بنتيجة توصلت إليها بعد هذا العرض، فحواها "الحق أن كل ترجمة للقرآن مهما بلغت عاجزة عن الوفاء بروح النص ولفظه"[٣]

وهذه المعاني التي تحدثت عنها ماشيل بالنسبة للغة القرآن وسموها على كل اللغات لما تمتكله من مقومات وملكات تفتقدها كل اللغات الأخرى، هو الذي يجعل القرآن الكريم يستولي على النفوس ويملك أقطار القلوب، وإن هذا ما يجده قارئ القرآن الكريم حين يقرؤه بتجرد، وليس من العجب أن نجد بعض المستشرقين ينقلون إلينا تجاربهم مع القرآن الكريم حين قرؤه بتجرد، وكان من هؤلاء أربيري، وفريدرك ديني، وقد نقل إلينا هاتين التجربتين عن هذين المستشرقين جيفري لانغ وذلك حين تحدث عن الطاقة التي ينشرها القرآن الكريم في نفوس قارئيه، هذه الطاقة قد تكون سببا قويا لأن يولي المرء وجهته شطر الإسلام، يحدثنا عن تجربة آربيري فيقول " ولقد عبر العديد من الباحثين في الإسلام من غير المسلمين عن مثل هذا الشعور الذي كان

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، صـ٢٨٥
(٢) الإسلام كبديل: مراد هوفمان، المقدمة صـ١١
(٣) المصدر السابق: صـ١١

ينتابهم لدى قراءتهم للقرآن، فباحث العربية المعروف البريطاني آرثر ج. آربيري، يذكر كيف أنه وجد في القرآن عونا له في بعض الأوقات الصعبة التي مر بها في حياته، حيث قال: إنه حينما يستمع إلى القرآن يتلى بالعربية فكأنما يستمع إلى نبضات قلبه "[١] ثم يحدثنا جيفري لانغ عن التجربة الأخرى لفريدرك ديني والتي لا تقل في روعتها وجودتها عن الأولى بل ربما فاقتها في التعبير عن سطوة القرآن على القلوب وتمكنه من النفوس وتملكه للأرواح، فيتابع قائلا " ويذكر فريدرك ديني وهو كاتب غير مسلم تلك التجربة العجيبة غير الطبيعية التي يشعر بها المرء أحيانا لدى قراءته القرآن، لحظات يشعر القارئ من خلالها بحضور شيء ما غامض وأحيانا مرعب معه، وبدلا من قراءة القرآن فإن القارئ يشعر وكأن القرآن يقرؤه "[٢] ثم إن جيفري لانغ نفسه كان قد عبر في نص واحد عن أمرين فيما يخص القرآن الكريم.

الأول: ما سبق ذكره من أن القرآن ليس كتابا علميا بالمعنى المعهود بل هو كتاب هداية في المقام الأول، فإن هذا يؤكد عليه لانغ من خلال قوله " إن القرآن أبعد من أن يكون كتاب نصوص علمية "[٣]

الثاني: الرقي والسبق الذي تتمتع به اللغة العربية في كافة النواحي اللغوية، ومن ثم فإن اللغة القرآنية تمتلك من المعاني ما تعجز عنه أي لغة أخرى، يقول لانغ في ذلك "فلغته – أي القرآن – أرقى أنواع الكتابة الأدبية، وتحمل العديد من ظلال المعاني المختلفة"[٤]

ونظرا لهذه المعاني التي تمتلكها اللغة القرآنية فإنها تعلن سيطرتها حتى على نفوس المخالفين من أهل الأديان والملل، ينبئنا عن ذلك توماس أرنولد، حين يتحدث عن إعجاب المسيحين بأسلوب القرآن حتى المتعصبين منهم ضد الإسلام، وذلك إبان اتصالهم بالمسلمين في إسبانيا، يقول " إننا نجد حتى من بين المسيحين مثل ألفار Alvar الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به "[٥]

---

(١) حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا: د/جيفري لانغ، تقديم: مراد هوفمان، ترجمة: د/منذر العبسي، طـ: دار الفكر المعاصر- بيروت، لبنان، دار الفكر – دمشق – سورية، طـ الخامسة سنة ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، صـ٢٠٦

(٢) المصدر السابق: صـ٢٠٦

(٣) حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا: د/جيفري لانغ، صـ٣٦

(٤) المصدر السابق: صـ٣٦،٣٧

(٥) الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية: سير توماس أرنولد، ترجمه إلى العربية وعلق عليه: د/حسن إبراهيم حسن، د/عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوي، طـ: مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، طـ الثالثة سنة ١٩٧١م، صـ١٦٢

إن أسلوب القرآن ونظمه المعجز الذي مكن له من السيطرة على القلوب، قد نالت أيضا من الشاعر والأديب الغربي جوته، الذي قال عن نظم القرآن وأسلوبه "إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة، وفي مواضع عديدة[١] يبلغ قمة السمو حقا"[٢]

وفي السياق ذاته نطالع نقدا للمستشرقة الإيطالية لورا فيشا، تحدثت من خلاله عن القرآن الذي هو المعجزة الكبرى للإسلام، وتبرز فيشا بعض الوجوه الإعجازية للقرآن فتقرر: أن تواتره الذي لا يتطرق إليه الشك بحال من الأحوال يأتي على قمتها، وكذلك اليقين المطلق الذي حواه هذا الكتاب، فضلا عما يتصف به من بلاغة لا ينهض لها كتاب آخر، تتحدث لورا فيشا عن هذا كله وغيره باستفاضة فتقول " إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلا من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي وليس بالقصير أكثر مما ينبغي، أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي الذي تحدر إلينا من العصور التي سبقته، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي، إن آياته كلها على نسق واحد من البلاغة "[٣]

ويبدو أن وجه الإعجاز الخاص ببلاغة القرآن الكريم وما ينضوي تحتها من جزالة لفظه، وطلاوة عباراته، ورونق أسلوبه، كان له تأثير كبير على بعض المستشرقين، فلم يتمالكوا أنفسهم إزاء هذه الظاهرة التي لم توجد إلا في القرآن الكريم، فراحوا يتحدثون عنها بوجه من الإعجاب والانبهار يشهد بكمال القرآن، ومن هؤلاء المستشرق البريطاني هاملتون جب، الذي أخذ يتمعن في الأسلوب القرآني ويلحظ مدى تأثير هذا الأسلوب في الوجدان البشري، وأخذ يتفرس هذه القدرة الغير محدودة لهذا الأسلوب في كونه يحرك قلوب الناس ويعيد تشكيل حياتهم، يحدثنا جب عن ذلك فيقول " فالذي يمنح القرآن قوة على تحريك قلوب الناس وتشكيل حياتهم، ليس هو محتواه من مبادئ ونذر، وإنما هو سياقه اللفظي، إذ يتكلم كأسفار النبوءات في التوراة بلغة الشعر، وإن لم يخضع لقيود الشعر من وزن وقافية، وإذا كان المرء يعني بالشعر ما يكاد يشبه السحر

---

(١) ثمة تحفظ لنا على هذه العبارة، فأسلوب القرآن المحكم ونظمه الراقي يتجلى في كل آيات القرآن وألفاظه، وليس في موضع دون موضع كما توهمه العبارة

(٢) جوته والعالم العربي: كاتارينا مومزن، ترجمة: د/عدنان عباس علي، مراجعة: د/عبدالغفار مكاوي، إصدار: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، العدد: ١٩٤، طـ سنة ١٩٩٥م، صـ١٤٨

(٣) دفاع عن الإسلام: لورا فيشا، صـ٥٦

في نظم الألفاظ، حتى تحدث صدى ويتردد صداها في العقل، وتفتح منظورات طويلة للبصيرة، وتخلق في الروح سموا يحلق بها بمنأى عن عالم المادة، وينور جنباتها بفيض فجائي من الشعاع، فذلك بالضبط هو ما يعنيه القرآن لدى المسلم، والدليل على أن هذا ليس محض تصور ليس هو التجربة الشخصية فحسب بل إن مبدأ الإعجاز يعتمد على خصائصه الفنية والجمالية بقدر ما يعتمد على محتواه الغزير "[١]

ويسترسل هاملتون في بيان القوة البلاغية للقرآن الكريم، وهو هنا يعقد مقارنة بين القرآن والكتب المقدسة فيما يتعلق بالأثر الذي يترك القرآن في نفس المسلم ووجدانه وشعوره، جراء ما يملكه من المقومات والمكونات البلاغية، هل للمسلم خصوصا ولقارئ القرآن عموما أن يجد هذه الآثار الوجدانية والنفسية والشعورية في أي كتاب آخر غير القرآن؟ هل للمسلم أن يجد كتابا آخر غير القرآن يحلق بروحه في سماء الأرواح مخترقا به حجب الغيب حتى يصل به إلى عالم ما وراء المادة؟ يجيب هاملتون بالنفي القاطع الصريح ويقرر " وليس غريبا أن لا يجد المسلم في أي كتاب مقدس آخر شيئا من هذه الصفة الشعرية الشعورية، وهذه القوة على تأييد ملكة الرؤى الحدسية وتقويتها، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقف من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة "[٢]

وبنفس المقارنة السابقة يطالعنا مستشرق آخر بعقد مقارنة أخرى، لكن هذه المقارنة أوسع وأرحب من سابقتها، إذ يعقدها المستشرق السويدي بير جوهانسون بين القرآن الكريم وبين الكتب الأخرى سواء أكانت سماوية أم تاريخية أم وضعية نالت شهرة عالمية وقبولا بين البشر، وأيضا كان من مجلات المقارنة التي قام بها جوهانسون، المقارنة بين النص القرآني وبين سائر النصوص في أثوبتها المختلفة الشعرية والنثرية والأدبية، ثم خرج من هذه المقارنة ذي الأوجه المتعددة بنتيجة فحواها: أن عقد مثل هذه المقارنة في كافة المجالات تجعل القرآن الكريم يأتي على رأس القائمة فهو يبتعد كل البعد عن كل الكتب وعن كافة النصوص ويفوقها بنظمه وأسلوبه وإعجازه، وأكبر دليل على ذلك هو جريانه على الألسنة في كل مكان وفي كل زمان، وإن مرد هذا الانتصار الذي حققه ويحققه القرآن إلى الكريم إلى أنه وحي إلهي متلو بلسان النبوة، يقول جوهانسون " إذا لم يكن الأداء القرآني شعرا، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخا ولا وصفا، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في

(١) دراسات في حضارة الإسلام: هاملتون جب، تحرير: ستانفورد شو، وليم بولك، ترجمة: د/إحسان عباس، د/محمد يوسف نجم، د/محمود زايد، طـ: دار العلم للملايين، طـ الثالثة سنة ١٩٧٩م، صـ٢٥٦

(٢) المصدر السابق: صـ٢٥٧

شيء قليل أو كثير، ولا خطبا فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلب، وإن كان عالميا في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد في كل الأصقاع ويردد في كل بلد تشرق عليه الشمس "[١]

وثمة مستشرق آخر يضع يده على النقاط الحاسمة والفروق الجوهرية التي من خلالها تميز النص القرآني عن كل نصوص الكتب الأخر لاسيما السماوية منها، هذا المستشرق هو: الأمريكي واشنجتون إيرفنج، الذي تحدث عن الفروق الحاسمة فقال" كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح -عَلَيْهِ السَّلَامُ- اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولا من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على الكتابين من تغيير وتبديل"[٢]

ويسير في ركاب المستشرقين المنبهرين ببلاغة النص القرآني، مستشرق آخر هو الفرنسي الدكتور ماردريك، الذي انبهر بالنص القرآني فأخذ يتحدث عن مزاياه وما انطوى عليه هذا النص من أسلوب متفرد يصعب وجوده في نص بشري، ومن ثم فإن هذا النص بما احتواه من نظم وبلاغة وجزالة، كل هذا جعل ماردريك يقرر أن هذا النص مصدره إلهي لأنه ليس في مقدرو البشر أن يصدروا نصا كهذا النص القرآني، يقول " أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن[٣] الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيا "[٤]

وإذا كان السياق السابق يتحدث عن بلاغة القرآن الكريم وجزالة ألفاظه ورونق أسلوبه، فإن مراد هوفمان ينطلق منه عابرا إلى سياق آخر شديد الاتصال به، ألا وهو سياق صدق القرآن الكريم وكونه من عند الله، وإن من الكبريات الدلالية على ذلك بلاغته ورونق أسلوبه وجزالة لفظه، إذ تستحيل هذه المكونات القرآنية أن تجتمع في لغة من صنع البشر، ناهيك عما فيه إشارات علمية ثبت صدقها، وقصص تاريخي ثبتت حقائقه وغير ذلك من هذه المكونات التي تشهد بصدق القرآن، وقد حدا بهوفمان على أن ينقل إلينا في هذا السياق شهادة هامة لأستاذ بروتستاني هو الدكتور بول شفار تسناو، يتحدث فيها عن تلك المكونات القرآنية التي انفرد بها القرآن عن سائر الكتب الأخرى حتى السماوية، مما يشهد بأنه وحي سماوي، ولقد دون شفار تسناو هذه

(١) القرآن الكريم من منظور غربي: د/عماد الدين خليل، طـ: دار الفرقان – عمان، الأردن، طـ الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، صـ٢٤،٢٥

(٢) حياة محمد: إميل درمنغم، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، طـ: دار العالم العربي، طـ الثالثة سنة ٢٠١٦م، صـ١٣١،١٣٢

(٣) لنا تحفظ على هذه العبارة مما قد توهمه من تجسيم أو جهة، من كل ما هو سبحانه وتعالى منزه عنه.

(٤) القرآن الكريم من منظور غربي: د/عماد الدين خليل، صـ٢٤

الشهادة وأودعها في مؤلف له بعنوان (القرآن دليل للمسيحين) ولعل العنوان يعرب عن مدى الدهشة التي تملكت تسناو من اطلاعه على هذه المكونات القرآنية، وأيضا يعرب عما قد تحتويه هذه الشهادة من تفاصيل دقيقة واعترافات خطيرة، لذلك اعتبر هوفمان هذه الشهادة بمثابة الحدث الجلل والمهم الذي حدث للإسلام في ألمانيا، ينقل لنا هوفمان هذه الشهادة فيقول " لقد حدث أفضل ما يمكن أن يحدث للإسلام في ألمانيا في هذه الآونة، حيث قام أستاذ بروتستانتي في أصول الدين، وهو الدكتور بول شفار تسناو بكتابة مؤلفه (القرآن دليل للمسيحين - شتوتجارت - ١٩٨٢م) والذي اعترف فيه بصدق القرآن حتى عندما يتعارض مع الكتاب المقدس، ويعترف شفار تسناو الذي يدين لكتابات جوستاف يونج في علم النفس التحليلي، بأن القرآن قد نجح في أن يأتي بنماذج أصلية تتفق مع مفهوم (اللاوعي الجماعي) وقد أدى به هذا إلى أن يؤكد أن القرآن صحيح، ووحي غير مختلق، وأنه على الرغم من الأحداث التاريخية الواردة فيه[١] إلا أنه مستقل عن أي سياق تاريخي: لا يحده زمان ومتضمن للحقيقة المركزة، وشبه القرآن ببلورة دوارة متعددة تصور نور الله في انعكاسات لا حصر لها "[٢]

وفيما يخص موقف القرآن من التفكير، فنحن نعلم أن المستشرقين قد اتهموا القرآن اتهامات باطلة في هذا الشأن وراحوا يشنعون على القرآن أنه يلغي عند الإنسان ملكة التفكير ويحد من نشاطه العقلي، لأن القرآن بحال من الأحوال لا يتفق مع العقل! هذه الاتهامات الباطلة وقف منها بعض المستشرقين موقفا نقديا وراحوا يشهدون للقرآن بأنه أعطى مكانة كبيرة للعقل والعلم، وأن القرآن لم يكن في يوم من الأيام حجر عثرة في طريق العقل، بل إن القرآن يطالب المؤمن أن يقيم الأدلة العقلية على إيمانه حتى يترقي هذا الإيمان إلى مرتبة التصديق التام الذي لا يتطرق إليه شك بحال من الأحوال، كان من هؤلاء: جيفري لانغ، الذي تحدث عن موقف القرآن من العقل والتفكير قائلا " إن إعطاء المكانة العالية للتفكير من أجل الوصول إلى الإيمان أمر يشتهر به القرآن "[٣] ولم يكتف لانغ بمقولته على بيان العلاقة بين القرآن والعقل وآلياته من التفكر والتدبر وغير ذلك، بل إنه أراد أن يعطينا دلالة واضحة على ذلك فنراه ينقل لنا كلاما أو نقدا في غاية الأهمية لأحد المستشرقين أماط به صاحبه اللثام عن جوهر العلاقة الحقيقية بين القرآن والعقل، وأن القرآن دائما وأبدا يشجع العقل ويثير همته حتى يوقظ ملكاته من التفكر والتأمل والتدبر، فيوجهه بالنظر إلى هذا الكون وما فيه من عجيب الصنع وعظيم

(١) نتحفظ على هذه الكلمة لإيهامها أن هناك أحداث تاريخية واردة في القرآن الكريمة ربما يتطرق إلى صحتها أو ثبوتها شك أو شيء من هذا القبيل.

(٢) يوميات ألماني مسلم: مراد ويلفريد هوفمان، ترجمة: د/عباس رشدي العماري، طـ: مركز الأهرام للترجمة والنشر، طـ الأولى سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، صـ١٢٢

(٣) حتى الملائكة تسأل: د/جيفري لانغ، صـ٥٤

التدبير، ويتصل بموقف القرآن من العقل، هذا الموقف الواضح الجلي الذي يعلنه القرآن الكريم من خلال آيات كثيرة من الذين يلغون عقولهم فينعي عليهم إلغاء ملكة التفكير لديهم، ومن ثم نراه يحط من شأن التقليد واتباع الآباء والأسلاف والموروث من التقاليد وغيرها دون الوقوف أمامها بإعمال ملكة التعقل والتفكر، وإن آيات القرآن الكثيرة التي دارت حول هذا المعنى أكبر شاهد على ذلك، ينقل لنا جيفري لانغ، كلام المستشرق مكسيم رودينسون، الذي هو من الأهمية بمكان نظرا لأنه نطق به بالرغم من عدم إسلامه مع كونه دعم هذا الكلام بالشواهد القرآنية، وهذا يستدعينا أن ننقل كلامه بطوله، لما يمثله من شاهد صدق فيما نحن بصدده، يقول لا نغ نقلا عن رودينسون " إن القرآن يقدم باستمرار البراهين العقلية الدالة على قدرة الله، فمعجزات الخلق مثل تكاثر الحيوانات والنباتات، تتناسب حياة الإنسان بشكل رائع وهي جميعا {لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران:١٩٠] ويضيف رودينسون: يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة الفعل عَقَلَ والذي يعني: يربط الأفكار بعضها ببعض، يفكر، يفهم مناقشة ذهنية، وتطالعنا اللازمة {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} بعد كل مقطع تعليلي في العديد من السور ثلاث عشرة مرة، وأما الكافرون الذين لا يستجيبون لدعوة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإن القرآن يصمهم بأنهم {قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} كما في الآيات ٥٨و٦٣و١٠٢-١٠٣ من سورة المائدة، و٤٢ -٤٥ من سورة يونس، و ٤٥-٤٦ من سورة الأنبياء، والآية ١٤ من سورة الحشر، على هذا فهم كالأنعام كما في الآيات ١٦٦-١٧١ من سورة البقرة، و ٤٤-٤٦ من سورة الفرقان "[(١)]

ولعل مسك الختام فيما للمستشرقين من نقد ذاتي في القرآن، وما لهم فيه عموما من طيب الكلام، هو كلام المستشرق الفرنسي لويس سيديو، الذي جمع فأوعى حين تحدث عن القرآن الكريم فقال " هو كتاب مجيد واجب التعظيم لا يمسه إلا المطهرون، أبان ما لله على عباده وما لهم عليه من الحقوق، ضرب فيه من كل مثل وما فرط فيه من شيء، جمع فأوعى فضائل ورذائل وحقائق وطاعات ومعاصي، نزل على رسول منجما حسب الوقائع، فكان رابطة بين قبائل العرب مؤسسا للوحدة الدينية "[(٢)]

• النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والنقد الذاتي للاستشراق

دأب المستشرقون على الطعن في ثوابت الإسلام ومن أهم ثوابت الإسلام التي طالما أثار المستشرقون حولها الشبهات، النبوة، وعلى وجه التحديد نبوة سيدنا محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقد كان هناك عداء معلن من جانب المستشرقين لنبي الإسلام سيدنا محمد، مما جعلهم يكيلون الشبهات للرسول في مختلف النواحي، سواء فيما يتعلق

(١) المصدر السابق: صـ٥٥

(٢) خلاصة تاريخ العرب: لويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبدالرازق، مراجعة: علي مبارك، طـ: مؤسسة هنداوي – المملكة المتحدة – بدون تاريخ، صـ٦٣

بالناحية العقلية، أم الناحية النفسية، أم الناحية الجسدية، أم ناحية تلقي الوحي، كل هذه النواحي وغيرها كانت مجالا خصبا للمستشرقين في بث الطعون وإثارة الشبهات، حتى يتسنى لهم القضاء على أهم أعمدة الدين ألا وهي النبوة، وأني لهم!

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أن كل الشبهات والطعون التي أثارها المستشرقون حول النبوة، بعيدة كل البعد عن العلم ومناهجه السليمة، فهي غير خاضعة للبحث العلمي، فقد جاءت كلها على شكل ترهات وأوهام وتخيلات وتخرصات يلقون بها في ساحة النبوة، تنبئ عن طيش وحمق وإسفاف فضلا عما تبديه تلك الشبهات من حقد وكره استقر في قلوبهم للإسلام عموما ولنبيه خصوصا، وكل هذا يعد من أكبر الأدلة على تلك الحرب الضروس التي أعلنها الغرب على الإسلام وقد مثل الاستشراق سلاحا من أقوى الأسلحة التي اعتمد عليها الغرب في شنه لهذه الحرب، وليس أدل على ذلك مما كتبه المستشرقون عن نبي الإسلام مما يقدح في نبوته، وقد تبارت أقلامهم في إحاطة النبوة بسياج من الأكاذيب والتخرصات مما من شأنه أن يشوه النبوة، ليس فقط في عيون الغربيين بل أيضا في عيون الشرقيين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، يحدثنا د محمد أبوليلة عن أحد أهم الكتب الاستشراقية لأحد أهم المستشرقين الفرنسيين هو مكسيم رودنسون، الذي بث سمومه وأفكاره حول نبي الإسلام في هذا الكتاب الذي كان يدرس في وقت من الأوقات لطلاب الجامعة الأمريكية في القاهرة، يقول د أبوليلة " نشر كتاب مكسيم رودنسون عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في فرنسا في بداية الستينات باللغة الفرنسية وفي بداية السبعينات باللغة الإنجليزية، وكان هذا الكتاب على رداءة فكرته وسوء خطته يوزع في مصر، بل كان يدرس بالجامعة الأمريكية للطلاب والطالبات المسلمين والمسلمات وبالرغم من وجود لجنة المتابعة ومراجعة مثل هذه الكتب بمجمع البحوث الإسلامية، وكاتب هذه السطور أحد المتعاونين معها فيما يخص الكتب الأجنبية، وبالرغم من وجود هذا الكتاب في مكتبتي الخاصة منذ أكثر من عشرين عاما، فإنه لم يصل إلى علمنا أن الكتاب كان يدرس لعدة سنوات بقسم التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والذي سبق أن نقدته أكثر من مرة في محاضراتي بانجلترا، واستمر الكتاب يدرس حتى كتب الأستاذ صلاح منتصر في عموده الخاص بجريدة الأهرام في عددها الصادر في (١٩٩٨/٥/١٣) تحت عنوان (كتاب يجب وقفه) ومن ثم فقد لفت الأنظار إلى بعض ما يحتوي عليه هذا الكتاب من مغالطات وافتراءات حول سيدنا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-"[1]

ولا يسعنا في هذا المقام أن نستعرض كل ما جاء في الكتاب من ترهات وأكاذيب حول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لكن سنكتفي بالإشارة إلى بعضها حتى تقف أيها القارئ

(١) محمد بين الحقيقة والافتراء في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون: د/محمد محمد أبوليلة، طـ: دار النشر للجامعات – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، صـ٧

الكريم على شيء مما تكنه قلوب هؤلاء لنبي الإسلام، وحتى تعلم أن كل هذا يحاك منهم في إطار الحرب الكبرى التي شنها هؤلاء على الإسلام منذ زمن بعيد ولم تتوقف إلى الآن، عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول رودنسون "إن محمدا لم تكن له ميول عاطفية نحو السيدة خديجة لتقدم سنها، وذلك لأنه كان يسعى فقط للحصول على مالها والاستعانة بثروتها لا للاستمتاع بها ولا لحبها، ولكنه استطاع أن يمارس شهوته الجنسية فيما بعد وهو كبير السن مع نساء حريمه الكثيرات "[1] ولا يخفى ما في هذا النص من غمز ولمز يقدح في شخص النبي الأكرم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويحوم حول عفته وطهارته.

ويضع رودنسون تحليلا - ما أقبحه – لشخصية النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولعل هذا التحليل يعكس ما استقر في نفسه تجاه النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يقول " إن محمد كان يجمع في يده كل أسباب السعادة، ولكنه بالرغم من هذا كان كئيبا وغير سعيد، وذلك لأن السعادة بحدودها المعروفة كانت بعيدة عنه لأنه كان يعاني من القلق والتوتر باستمرار، وإن شخصية كشخصية محمد لم تكن لتتقبل هذه السعادة بهدوء أو تتخلى عن الأشياء التي اعتادت عليها بسهولة، وذلك لأن السعادة المعروفة لدينا لم تخلق لهؤلاء الذين ينظرون إلى أبعد مما هم عليه بالفعل، أو ما هو بأيديهم في الواقع ونفس الأمر، إن نفوس مثل هذا الصنف من البشر لا تكاد تستقر على حال، ومهما أو تيت من السعادة فإنها تظل كئيبة وغير سعيدة "[2][3]

إنه ومن خلال هذا التحليل النفسي يرمي رسول الله بالتوتر والكآبة ويجعله شخصا به الكثير من الاضطرابات والعقد النفسية، التي يستحيل معها أن يكون مثل هذا الشخص نبيا مرسلا من قبل السماء!

ومثل هذه التحليلات النفسية والشخصية المشوهة والمبتورة هي أمور مقصودة ومتغياة للمستشرقين، حتى ينفدوا من خلالها إلى ما يريدونه من القول: أن ما جاء به محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هي أمور منحولة عن كتب الغير وثقافة الآخرين، وأن محمدا ما هو إلا ملفق لما أخذه ثم صنع من هذا كله دينا جديدا، أو هذا كله لا يعدوا أن يكون ضربا من ضروب الكهانة والعرافة، وشيئا من القيافة والفراسة، كل هذا تيسر للنبي محمد مما جعله قادرا على توليف هذا الدين الذي جاء به، هذا هو الهدف الأسمى

---

(١) المصدر السابق: صـ٧٦

(٢) محمد بين الحقيقة والافتراء: د/محمد محمد أبوليلة، صـ٨٠،٨١

(٣) هذه النقول مجرد نماذج من كتاب الدكتور أبوليلة كان قد نقلها من كتاب المستشرق رودنسون والذي هو بعنوان (محمد) وكان هذا الكتاب – على حد تعبير د أبوليلة – قد أثار جدلا واسعا في أوساط العلماء والمثقفين بمصر، انظر المقدمة صـ٥

الذي يتغيا المستشرقون إثباته[١]، وهو هدف قديم متجدد ويتجدد، وفي سبيله يحيطون الدين ونبيه وكتابه بكثير من الأباطيل، وليس ببعيد عنا ما كان يصدر منهم من إساءات معلنة وصريحة في محافلهم وجرائدهم الرسمية ضد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

بيد أنه في خضم تلك الترهات والأقاويل الكاذبة، يطالعنا بعض المستشرقين بأقوال صدق تمثل نقدا ذاتيا للمستسرقين فيما يتعلق بالنبوة.

وأول ما يطالعنا في هذا المقام ما كتبه المستشرق مايكل هارت حول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولا أقصد بما كتبه مجرد نص أو اثنين يمثل أحدهما أو كلاهما نقدا ذاتيا، بل إنني أقصد ما كتبه من مثل هذه الأقوال أو النقود جاءت في صورة كتاب كامل نال قدرا كبيرا من الصيت والانتشار، وهو الكتاب الموسوم بـ الخالدون مآئة أعظمهم محمد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولعل هذا العنوان يعكس هذا التأثير العظيم لسيرة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمن يقرؤها بتجرد وحيادية، ولعل الكاتب يكون واحدا من هؤلاء، وكتابه يكون أصدق تعبير عن هذا التجرد وتلك الحيادية.

ينبئنا هارت عن علة اختياره للنبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليكون على رأس قائمة العظماء من الخالدين، فيقول " لقد اخترت محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي، وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا، وبعد ١٣ قرنا من وفاته، فإن أثر محمد -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ما يزال قويا متجددا "[٢]

وبمثل هذا المنطق من النقد الذاتي يتحدث المستشرق الإنجليزي توماس كارليل عن النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- معللا اختياره لشخصية النبي للبحث فيها تاريخيا من

---

(١) إننا اقتصرنا في هذا المقام على مجرد إشارات، وآثرنا أن تكون هذه الإشارات من كتاب بعينه لأننا ارتأينا أسلوب هذا المستشرق من أفظع الأساليب وأفجها، أما من ناحية الموضوعات التي تناولها هذا المستشرق ومثلت طعنا من الطعون التي طالما أثارها المستشرقون ضد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهذه الطعون والشبه تكاد تكون واحدة عند الجميع إنما التناول والأسلوب هما ما يضفي عليها أحيانا لونا من الفرقة والاختلاف من ناحية الصورة والشكل أما المضمون فهو واحد، وحتى تقف أيها القارئ على أمثال هذه الشبه والطعون راجع ما كتبه الدكتور الشرقاوي تحت عنوان: المستشرقون وسيرة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- انظر: الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، صـ١٥٨ وما بعدها.

(٢) الخالدون مآئة أعظمهم محمد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، طـ: المكتب المصري الحديث – القاهرة، بدون تاريخ، صـ١٣

ناحية البطولة والعبقرية التي تشكلت في صورة النبوة، فيقول " ولقد اخترت محمدا أبحث في تاريخه هذه الظاهرة الثانية من عبادة البطولة في صورة نبي، ليس لأنه أشهر الرسل على الإطلاق، بل لأنه أكثرهم طواعية للبحث والتحقيق ولأنه من أصدقهم باعتقادي، ولست بمحاذر خطرا من البحث عنه، فلا أخشى انقلابكم إلى الإسلامية وهو ما يدفعني إلى الإشادة بكل صفاته، والبحث عن سر عظمته، وماذا كان يريده من إحسان في هذا العالم "[١]

وينفي توماس كارليل عن النبي محمد -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- ما اتهمه به المستشرقون وغيرهم من ادعاء الكذب وتلفيق ديانته من بعض الثقافات والديانات التي اطلع عليها، ويقرر كارليل أن مثل هذه الافتراءات لا يليق أن تصدر عن أناس ينتسبون إلى الحضارة المعاصرة كما لا يصح أن تصدر عمن يشتغلون في ميدان البحث العلمي، فضلا عن كونه وصف القائلين بهذه الأقوال بالغلو والتطرف، نظرا لأنها لا تعدوا أن تكون مجرد افتراءات ليس لها نصيب من الواقع أو التحقيق العلمي، يقول كارليل " أما اعتقاد بعض الغلاة المتطرفين في محمد الكذب، وأن ديانته ليست عبارة إلا عن خزعبلات وأكاذيب، فأمر لا يتفق والحقيقة التاريخية في شيء أبدا، ودعوى لا تقام عليها بينة، وقول مردود يعود علينا بالخجل والعار، وليس يصح من أبناء الحضارة الحاضرة الإصغاء إلى مثل هذه الأقوال التي تغمرها الأهواء والمقاصد، بل إن الواجب محاربة هذه الشوائع والمعتقدات المخجلة السمجة، لأن الرسالة التي أداها هذا النبي مازالت سراجا منيرا مدة اثني عشر قرنا لنحو مآتي مليون من الناس من أمثالنا الذين خلقهم الله كما خلقنا، كما أن الكلمة التي أداها محمد، يؤمن بها أكثر خلق الله في عصرنا الحاضر "[٢]

ومن قبيل هذه النقود الذاتية ما نراه عند أحد كبار المستشرقين الفرنسيين إميل درمنغم، الذي تحدث عن النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- بمنتهى الحيدة والاعتدال، ذاكرا أوصاف الرسول وما كان عليه من خلق وسجية، يقول " إن محمدا لم يكن شرها ولا فخورا، ولا متعصبا ولا منقادا للمطامع، بل كان حليما رقيق القلب عظيم الإنسانية، وأحيانا مترددا إذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقده وحيا إلهيا[٣]، وكان بشوشا دمث الأخلاق

---

(١) محمد بن عبدالله وآراء مشاهير كتاب الغرب في رسالته ونبوته والإسلام: إدوارد لويس مونتيه، تعريب: عمر أبوالنصر، طـ: المكتبة الأهلية للطبع والترجمة والتأليف والنشر- بيروت، طـ الأولى سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، صـ٢٢

(٢) المصدر السابق: صـ٢٢

(٣) لعله يقصد تلك الأحوال التي كان يُسأل النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- فيها ولا يجيب حتى ينزل عليه الوحي بجواب، أو الأحوال التي ربما كان يجيب فيها جوابا ثم يأتي الوحي بتصحيح أو إضافة أو تقرير، فيعيد النبي إجابة الوحي بما اشتملت عليه من تصحيح أو إضافة أو تقرير.

حسن المعاشرة ساذج المعيشة[١] يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه، ويخصف نعله، ويحلب شياهه، ويضطجع في أرض المسجد، وينهض ويفتح الباب لهرة تريد أن تدخل، ويعالج ديكا مريضا، ويمسح ببردته عرق جواده، ويوزع الصدقات ما كان لديه مال، ويتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دنيوي، وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيدا، ولم يكن عنده بلاط ولا وزراء ولاشيء من أبهة الملوك، وإنما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله، وكان محمد يقضي أكثر أوقاته في الصلاة سواء في الخلوات وغير الخلوات وفي الوعظ وفي الشغل، ويقضي نصيبا من وقته مع نسائه وكان محمد يحب الأطفال كثيرا ويلعب معهم ويترك أولاد بنته يركبون على ظهره حتى في الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب... ولازم أنس خادم محمد مولاه عشر سنوات فكان يذكر عجيب صبره ويقول: إنه ما وبخه ولا مرة واحدة خلال مدة خدمته له، وكان حسن المعاشرة للجميع إلا إنه كان يحب المحافظة على خلواته، وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون إذن منه، وعن مناداته من وراء الحجرات "[٢]

وهذه السجايا الإنسانية المذكورة تخالف بالطبع تلك الأوصاف البذيئة التي أطلقها عليه المستشرقون، وهي تعرب في المقام الأول عما كان عليه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من مكارم وشمائل خلقية وسجايا إنسانية يصعب أن تجتمع بهذا القدر وبهذا التساوي دون أن ترى خللا في واحدة منها على حساب الأخرى، أقول: يصعب أن تجد هذا إلا في نبي.

وفي كون النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جاء بدين من عند الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، يقول درمنغم " لاجرم أن محمدا قد نهض داعيا العرب[٣] إلى الدين الوحيد اللائق بالإله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانبا من أسيا وإفريقيا ويحطم قيود التقليد، وينبه فارس التي كانت نائمة في وثنيتها، ونصرانية الشرق التي كانت ممزقة بالمجادلات الدينية، ولا جدال في أن الأنبياء في العالم هم أشبه بالقوى الطبيعية المحسنة العظيمة التي هي من قبيل المطر والشمس والزوابع التي تهز الأرض ثم تملأها خضرة ونضرة، فيجب على الناس أن يعرفوهم بثمرات أعمالهم، وأصدق الشهود عليها هي الصدور الثالجة باليقين، والقلوب المطمئنة، والعزائم الناهضة، والنفوس الصابرة على البلاء والأسقام الزائلة، والصلوات الطاهرة الصاعدة إلى السماء، وكذلك ظهر محمد لا يعرف شيئا من العلوم غير العلم الأعلى، أميا طاهرا ساذج الطبيعة طليقا من

---

(١) يقصد السهولة في العيش وعدم التكلف فيه.

(٢) محمد بن عبدالله: إدوارد لويس مونتيه، صـ٥١،٥٢

(٣) إن رسالة النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رسالة عالمية لم تكن للعرب وحدهم بل كانت لكافة الناس

قيود الأوهام "[١]

ومن قبيل النقود الذاتية ما قاله المستشرق لويس مونتيه حين تحدث عن النبي محمد -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- معددا صفاته وشمائله، منوها أن مثل هذه الصفات تنبئ بنبوته[٢]، وإن الوقوف أمام هذه الصفات بتجرد وحيادية تسلم إلى نتيجة مؤداها: أن محمدا نبي مرسل من الله، يقول " أما محمد فكان كريم الأخلاق، حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم، صادق اللفظ، كانت الصفات الغالبة عليه صحة الحكم وصراحة اللفظ والاقتناع التام بما يعمله وبقوله، وإن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحا دينيا ذا عقيدة راسخة، ولم يقم – إلا بعد تأمل كثير وبعد أن بلغ سن الكمال[٣] – بدعوته الدينية العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية في الدين "[٤]

ومن أروع ما يقابلنا في مقام النقد الذاتي للمستشرقين، شهادة المستشرق البريطاني مونتجمري وات، الذي لم تكن شهادته فقط مجرد إطراء على النبي أو إعجاب يبديه بشخصه وصفاته، بل كانت هذه الشهادة نقدا لكل المستشرقين الذين تحاملوا على الإسلام وعلى نبي الإسلام من خلال ما قدموه من دراسات مشوهة ومبتورة لا تفي بنقل الحقيقة كما هي، يبدأ وات كلامه بالحديث عن عزيمة النبي محمد

---

(١) محمد بن عبدالله: إدوارد لويس مونتيه، صـ٥٣

(٢) وخير ما يعبر عن هذا المعنى قول الصحابي عبدالله بن رواحة الذي كان يمدح النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- بأشعاره وأهازيجه، وكان مما قاله في هذا المعنى: لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ *** كَانَتْ بَدَاهَتُهُ تُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ. انظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ) تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، طـ: دار إحياء التراث العربي – بيروت، طـ الأولى سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ٣، صـ٦٥

(٣) قد توهم هذه العبارة أن دعوة النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- كان أساسها التأمل فقط، بمعنى أن النبي انقطع فترة من الزمن يتأمل حتى وصل إلى معارف معينة ثم بدأ دعوته على أساس من هذه المعارف فقط دون أن يكون هناك وحي سماوي، وهذا يردنا إلى قول بعض المستشرقين بوجود التأثر اليهودي والمسيحي فيما يخص الرهبنة والعزلة، كما ذهب إلى ذلك مونتجمري وات حين تحدث عن رؤى النبي في حراء وتحنثه فيه وقد علق على هذا بقوله " ويمكن للتأثير اليهودي المسيحي ولا سيما مثل الرهبان، أو تجربة شخصية لمحمد أن يكون قد أثار فيه الحاجة للخلوة والرغبة فيها " وهذا كله خطأ ومحض افتراء، فدعوة النبي كانت على أساس اصطفاء إلهي، انظر كلام مونتجمري وات في: محمد في مكة: مونتجمري وات، تعريب: شعبان بركات، طـ: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون تاريخ، صـ٨١

(٤) محمد بن عبدالله: إدوارد لويس مونتيه، صـ٥٧،٥٨

-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في تحمل الأذى والإضطهاد الذي طالما تعرض له أثناء فترة دعوته لا سيما في الفترة المكة، وعن أصحابه الذين شاركوه هذا الأذى والإضطهاد، ثم ما فعله النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من منجزات في فترة زمنية بسيطة، كل هذا يشهد بنبوته، يقول وات " إن عزيمته في تحمل الإضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيرا عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع "[1]،[2]، ثم يتحدث وات عن شهادات الغربيين عن النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في كونها شهادات مجحفة لا تمت للواقع بصلة، وأن مثل هذه الشهادات والأقوال أسهمت بشكل رئيس في الحط من قدر النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الغرب، وهذا من شأنه أن يثير المشكلات أكثر مما يحل، يقول وات " فاتهام محمد بأنه دجال يثير من المشاكل أكثر مما يحل، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد، فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد "[3]

ويطالعنا في مقام النقد الذاتي للاستشراق، ذلكم النقد الباهر للمستشرقي الفرنسي لامارتين، الذي أبدى فيه إعجابه الشديد بشخصية النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بل إنه تناول في كتاب له سيرة النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومما قد يجده القارئ في هذا الكتاب من بعض الهنات الاستشراقية التي تقدح من طرف خفي في النبوة مما جبل المستشرقون عليه من إثارة الشبهات حول مقام النبوة، إلا أن هذا كان قليلا في هذا الكتاب، وإن أكثره كان سردا صحيحا للسيرة النبوية، وكان مما قاله مما يعد من قبيل النقد الذاتي، حديثه عن أسلوب الحياة التي كان يحياها النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد استعراض سيرته، وكيف كانت هذه الحياة مفعمة بالأخلاق من الزهد والتواضع وشظف العيش والعطف والإحسان، وكيف كان صاحبها يتحلى بجميل الشمائل من الأدب والجمال والكمال، مما يدحض كل ما قاله المستشرقون من الافتراءات عن حياة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويثبت نبوة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يقول لامارتين " وكانت حياته حياة القناعة والشظف، بل والزهد، حياة مفعمة تأملا وصلاة وصوما وخشوعا لله، وهونا في المشي ومواظبة على المسجد، وتطهرا وسجودا على الرمل ووعظا ودعوة إلى سبيل الله، ولم يكن يبدي – في علاقته بالناس – ترفعا عدا ما يلوح عليه من قداسة

(١) محمد في مكة: مونتجمري وات، صـ٩٤

(٢) نرى في هذه الشهادة ما لا يتوافق مع كلام صاحبها في النص الذي أوردناه في الهامش السابق والمتعلق بحديثه عن التأثير اليهودي والمسيحي فيما يتعلق بالتحنث والعزلة على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولا عجب في ذلك فقد يسوق الله مقالة الحق لهذا الدين على لسان غير أتباعه

(٣) محمد في مكة: مونتجمري وات، صـ٩٤

النبوة، ولم يكن فيه ولا حوله ما ينبئ بأنه ملك أو غاز، فقد كان كل ما فيه ينم عن النبي المرسل، كانت ثيابه ثياب الفقراء، كانت من قماش الصوف الخشن... وكان يعيش على التمر ولبن الماشية التي لم يكن يأنف من حلبها بنفسه، ولم يستعين بغلمانه في ما يشق من أشغال بيته إلا قليلا، فقد كان يرد الماء ويكنس بيته، وكان يجلس على حصير ويخصف نعله ويرقع ثوبه القديم، ولم يكن له من مظاهر الرقة إلا الحرص على نظافة البدن... كان يمشط لحيته بعناية، وكان يكحل جفنيه وحاجبيه، ويخضب بالحناء أظافره... ولم يكن يكنز ذهبا ولا فضة، إذ كان يوزع ما يجتمع عنده من الزكاة على الجنود والفقراء... وكان يودع في أيدي الفقراء وفي قلوبهم كل ما يتلقى... كان فناء بيته وأبواب المسجد المتخمة له وصحن المسجد دار ضيافة شاسعة ومأوى رحبا يأتيها المساكين واليتامى والمرضى ينشدون فيها إطعاما من جوع وبرءا من سقم... وكان سلوكه مع الذين يخاطبونه – مهما اختلفت درجتهم – رفيقا مفعما بالاحترام "[1]

ويواصل لامارتين تصدير نقوده للدراسات الاستشراقية عن طريق إبداء إعجابه بشخصية النبي محمد -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، تلك الشخصية التي رسمت لنفسها طريقا للإصلاح، وبالرغم من وعورة وصعوبة هذا الطريق إلا أن النبي اجتازه بنجاح باهر، وحقق الهدف الأسمى الذي كان يصبو إليه وحوله تتمركز دعوته ألا وهو: إرجاع الخلق إلى الخالق، يقول بعد أن استعرض سيرة النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- " تلك إذن كانت أطوار حياة محمد وبعثته وموته، فما من إنسان البتة رسم لنفسه – عن قصد أو غير قصد – إدراك هدف أسنى مما نوى، إذ كان هدفا يفوق طاقة البشر: نسف المعتقدات الزائفة التي تقف بين المخلوق والخالق، وإرجاع الله للإنسان وإرجاع الإنسان لله، بعث فكرة الألوهية المجردة المقدسة في خضم فوضى الآلهة المادية المشوهة، آلهة الوثنية"[2]

ويبدو أن نجاح النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- في دعوته رغم المشقة التي واجهها، كان هو الأمر الذي ملك على لامارتين أقطار نفسه واستولى على شغاف قلبه، الأمر الذي جعله يبدي إعجابه غير مرة بهذا النجاح الباهر الذي حققه النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، وحتى ننقل هذا الإعجاب بصورته التي ملكت لامارتين فإننا ننقل نصه كاملا دون تدخل، وفيه يقول " وما من إنسان البتة – في نهاية المطاف – قدر على أن ينجز في

(١) مختارات من كتاب حياة محمد: ألفونس دي لامارتين، ترجمة: د/محمد قوبعة، مراجعة اختيار: د/أحمد درويش، طـ: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – الكويت، طـ الأولى سنة ٢٠٠٦م، صـ١٢٠،١٢١ بتصرف بسيط، وهناك الكثير من الصفات والشمائل التي ذكرها لامارتين في كتابه للنبي محمد -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، بيد أننا اقتصرنا على ذكر طرف منها، وكفى من القلادة ما أحاط بالعنق

(٢) المصدر السابق: صـ١٢٢

وقت أوجز ثورة على الأرض أعظم ولا أبقى مما أنجز هو، إذ إن الإسلام كان في أقل من قرنين بعد دعوته، يسود سلما أو عنوة، كامل أنحاء جزيرة العرب ويفتح بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر والهند الغربية والشام ومصر والحبشة وكامل الجزء المعروف عندئذ من إفريقيا الشمالية، وعديد الجزر بالبحر المتوسط وإسبانيا وجزءا من بلاد الغال[١]، فإذا كانت عظمة المقصد وضآلة العدة، وضخامة النتيجة مقاييس عبقرية الإنسان الثلاثة، فمن يجرؤ أن يقارن – على الصعيد الإنساني – أي عظيم من عظماء التاريخ الحديث بمحمد "[٢]

وإن القارئ قد يتعجب حين يقرأ مثل هذا الكلام ثم يقارنه بكلام غيره لطرف من المستشرقين الذين كانوا يرون في محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رجلا قد اقتبس ديانته من ديانات الآخرين وما دوره إلا مجرد ملفق بين هذه الديانات جميعها ثم صياغة هذا الدين من هذا التلفيق، وآخرون منهم كانوا يرون محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما هو إلا إنسان كان ينتابه نوبات من الجنون والصرع، ولكن كيف بهذا الإنسان الذي يعتريه الصرع والجنون أن يؤسس دينا بهذا الشمول، وأن ينشئ أمة أقامت صرحا من الحضارة لم تسبقها إليه أمة من الأمم.

وفي هذا المقام نطالع نقدا ذاتيا للمستشرق الألماني ماكس ميرهوف، الذي أبدى انزعاجه من مثل هذه المقولات التي تتهم النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالصرع والجنون، وإنه ليؤكد أن النظر إلى سيرته، وأخلاقه، وشمائله، فضلا عن دينه، كاف بدحض أمثال هذه الفرى، يقول " لقد أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلا مصابا بمرض عصبي، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول "[٣]

(١) هي بلاد فرنسا، انظر: قادة فتح الأندلس: محمود شيت خطاب، طـ: مؤسسة علوم القرآن - منار للنشر والتوزيع، طـ الأولى سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، جـ١، هامش صـ٣٤٤، ووردت الإشارة إليها بنفس هذا المعنى في كتاب الأعلام في ترجمة عبدالرحمن الغافقي، انظر: الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) طـ: دار العلم للملايين، طـ الخامسة عشر سنة ٢٠٠٢م، جـ٣، صـ٣١٢

(٢) مختارات من كتاب حياة محمد: ألفونس دي لامارتين، صـ١٢٢

(٣) محمد بن عبدالله: إدوارد لويس مونتيه، صـ٥٩

المبحث الخامس
المجال التشريعي والنقد الذاتي للاستشراق

إذا كان المبحث السابق تناول النقد الذاتي للاستشراق في بعض المسائل التي تنتمي من الناحية البحثية للمجال العقدي، فإن هذا المبحث سوف يتناول بيان النقود الذاتية للاستشراق فيما يتعلق ببعض المسائل التي تنتمي من الناحية البحثية للمجال التشريعي.

وقد ارتأيت أن أهم المسائل التي تنتمي للمجال التشريعي مسألتان أو قضيتان هما:

- **قضية المرأة.**
- **قضية التسامح الإسلامي.**

وتأتي أهمية هاتان القضيتان نظرا لما يتعلق بهما من المعاصرة التي تحيط بهاتين القضيتين، فهناك بعض الأطروحات الحداثية والعلمانية التي تروج لبعض الأفكار والرؤى التي كان قد طرحها المستشرقون من قبل، فقد كانت هاتان المسألتان - ولا تزالان- تمثلان مجالا خصبا للدراسات الاستشراقية وتلك الدراسات المستغربة والعلمانية التي تسير في ركابها حذو النعل بالنعل، لإثارة الشبهات والطعون حول هاتين القضيتين، ومن ثم أردت أن أميط اللثام – قدر الوسع والطاقة – عن تلك النقود الذاتية من جانب المستشرقين حول هاتين القضيتين، لتكون تلك النقود شاهد صدق على تلك المكانة التي تتمتع بها المرأة في الإسلام، وأيضا لتكون هذه النقود دلالة حق على مدى التسامح الذي يدعو إليه ديننا الحنيف، ويأتي من وراء ذلك أن تكون هذه النقود بمثابة المرآة التي يجب أن ينظر إليها المستشرقون ومن حذا حذوهم ممن لديهم نية مبيتة وأحكام مسبقة من كل أولئك الذين يريدون أن يدلوا بدلوهم في هاتين القضيتين على وجه الخصوص أو في قضايا أخرى على وجه العموم، فيبصروا في هذه المرآة وجه الحق والحقيقة.

- **المرأة في الإسلام والنقد الذاتي للاستشراق**

مثلت المرأة قضية خصبة للمستشرقين لإثارة الشبه حول مكانتها في الإسلام، وقد أثار هؤلاء وأضرابهم شبها كثيرة وعديدة حول هذه القضية، فكان منها ما يتعلق بمنزلة المرأة المسلمة في الأسرة، وكان منها ما يتعلق بمسألة القوامة، وكان منها ما يتعلق بموضوع الحجاب، وكان منها ما يتعلق بتعدد الزوجات، وكان منها ما يتعلق بالختان، وكان منها ما يتعلق بالطلاق والميراث والخروج إلى العمل وتولي المرأة منصب القضاء والولاية العامة وغير ذلك من الشبهات التي أثيرت حول المرأة وموقف الإسلام منها

فيما يتعلق بأمثال هذه المسائل وغيرها[١]

ولا نريد أن نسترسل فيما قاله المستشرقون مما هومن قبيل الإجحاف والافتراء في حق المرأة ومكانتها في الإسلام، فإن هذا ليس هو الغرض الأصيل من هذا المبحث وإن كان استعراض مثل هذه الأقوال من الأهمية بمكان، وكما قيل: بضدها تتمايز الأشياء، بيد أننا نشير إلى طرف منها، ومن أهم ما يقابلنا في ذلك ما ذكره الدكتور شوقي أبوخيل من تلك الافتراءات لبعض المستشرقين بل وللغربيين عموما من كبار الكتاب والمفكرين بل ومن كبار القادة السياسيين أيضا، ولم تخل هذه القائمة من رجال الدين (الكهنوت)، عن هذه الافتراءات والأكاذيب أو الإسقاطات – على حد تعبير د شوقي – يحدثنا قائلا " ومن الذين عزوا – زورا وبهتانا – إلى الإسلام (إسقاطا) ما ليس منه، اللورد (كرومر)[٢] الذي قال: إن لفشل الإسلام كنظام اجتماعي أسبابا، منها أنه جعل المرأة في مركز منحط كثيرا عن الرجل، والسير (وليم موير) – مستشرق اسكتلندي – في كتابه (حياة محمد) عندما ادعى أن المسلمين يجهلون معنى الارتباط الزوجي جهلا كبيرا، وحال المسلمين ترتقي عندما يتبعون سنة النصارى في مجال الرابطة الزوجية، ويكرر رجال الكهنوت في مواعظهم ونشراتهم قولهم: إن الكنيسة دون سواها هي التي حررت ورعت حقوق المرأة "[٣]

---

(١) من أهم الأبحاث التي تعرضت لأمثال هذه القضايا التي أثارها المستشرقون حول المرأة بحث للدكتوره عفاف عبدالغفور، وقد جاء هذا البحث مكونا من مبحثين، وما يتعلق بهذه القضايا تناولته الباحثة في المبحث الأول بيد أن الباحثة ركزت اهتمامها بتلك القضايا التي وردت في القرآن وهذا يتضح بأمرين، الأول: هو عنوان البحث وسيأتي بيانه، الثاني: تخصص الباحثة، فقد تخصصت في دراسة التفسير وعلوم القرآن، أما المبحث الثاني فقد عقدته الباحثة للحديث عن أهم الوسائل التي يتمكن المستشرقون من خلالها من نقل أفكارهم كالتعليم والمؤتمرات والإعلام وغير ذلك من وسائل، وقد جاء هذا البحث في حوالي ستون صحيفة، انظر: شبهات المستشرقين حول قضايا المرأة في القرآن وسائلها وآثارها والرد عليها: د/عفاف عبدالغفور حميد، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الكويت، سنة النشر: ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، وهناك بحث صغير تعرض لقضية المرأة فيما يتعلق بمسألة الميراث والموقف الاستشراقي من هذه المسألة، يقع هذا البحث في حوالي ست عشرة صحيفة، انظر: الموقف الاستشراقي من حق المرأة في الميراث في الإسلام دراسة تحليلية: د/محمد بن سعيد عبدالله السرحاني، بحث منشور في مجلة الإحياء، المجلد: ٢٠، العدد: ٢٦، سنة النشر ٢٠٢٠م

(٢) اللورد كرومر له إسقاطات كثيرة فيما يتعلق بمكانة المرأة في الإسلام وقد أشار إليها مصطفى الغلاييني: انظر: الإسلام روح المدنية: مصطفى الغلاييني، صـ١٩٨ وما بعدها

(٣) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ١٣٣ بتصرف بسيط، وانظر أيضا: الهلال والصليب: خليل خالد أفندي، صـ١١٨

ولعل هذا الكلام يعكس لنا عدة أمور:

أولاها: مدى إيمان الغربيين عموما بموقفهم من قضية المرأة وسوق الاتهامات والافتراءات حول ما يتعلق بهذه القضية

ثانيها: تلاقي جميع الأطياف من ساسة ومستشرقين ورجال كهنوت على هذه القضية، وخصوصا المستشرقين والسياسيين، وهذا يعكس متانة وقوة العلاقة بين الساسة والاستشراق، حيث وظف هؤلاء الساسة المستشرقين لأغراض تخدم قضيتهم الكبرى وهي قضية الاستعمار، وجاء دور رجال الكهنوت ليباركوا ويدعموا هذه القضية!

ثالثها: كل هذه الأقوال تعكس اتفاق جميع هذه الأطياف على أن الإسلام حط من شأن المرأة ولم يعطي لها حقوقها !!

إن هذا الموقف من قضية المرأة في الإسلام الذي اتخذه المستشرقون وساروا عليه في دراساتهم الاستشراقية، يعكس ما استقر في نفوسهم ضد الإسلام عموما وقضية المرأة خصوصا، وإن المتأمل لهذا الموقف والناظر في مثل هذه الشبه وتلك الطعون يكاد يجزم أن مثل هذا الكلام إنما أطلقوه وأرادوا به المرأة في الجاهلية، فقد كان وضع المرأة قبل الإسلام يحتمل مثل هذا الكلام وتصدق عليه أمثال هذه الشبه، أما أن يراد به وضع المرأة في الإسلام فهو الإجحاف بعينه والتدليس في أعلى مستوياته

وحتى ندلل على صدقنا فيما نقول، لابد لنا من أن نعرج قليلا لو بمجرد الإشارة إلى وضع المرأة قبل الإسلام، حتى نتيقن أن مثل هذا الكلام إنما يصدق فقط على هذه الفترة الزمنية من تاريخ المرأة، وهو بعيد كل البعد عن أن يكون توصيفا للحالة التي عاشتها المرأة في ظل الإسلام، يحدثنا الدكتور جواد علي عن الوضع الذي كان عليه الرجل قبل الإسلام ومن خلال هذا الوضع تتعرف على ما كانت المرأة تعانيه قبل أن يأتي الإسلام وينصفها، وكما أشرنا من قبل: بضدها تتمايز الأشياء، يقول " والرجل بحكم تفوق بنيته على بنية المرأة، وبفضل قوة عضلاته ومقاومته للطبيعة وللأخطار سيد الأسرة و "رب العائلة" و "بعل المرأة"، أي سيدها، منح نفسه حقوقًا لم يعطها للنساء، وبنى مفاهيم العدل والحق على أساس أن العدل هو القوة، فاغتصب حق المرأة والبنت والولد والرجل العاجز لقوته ولأنه مقاتل، أما غيره من المذكورين فعاجز عن القتال، فحرمهم من الحقوق. ومنها حقوق الإرث، وأباح لنفسه حق الاستمتاع بملاذ الحياة، وفي جملتها الاستمتاع بالنساء وبالخمور وببقية الأطايب، فله أن يتزوج ما يتمكن من النساء، وجعل بيده حق الطلاق، وجوّز لنفسه الاتصال بأية امرأة شاء وإن كان متزوجًا، وله أن يتسرى ما يشاء، وله غير ذلك من امتيازات وحقوق، بسبب قوته وتفوقه على الجنس الآخر وعلى المستضعفين من المخلوقات، لأن الحق للمخلوق القوي، ولا حق عند القوي

لإنسان ضعيف "[١]

ويتصل بهذا المقام ما ذكرته إحدى الباحثات عن وضع المرأة قبل الإسلام، فأفاضت وأوفت فقالت " كانت المرأة والطفل في أدنى مراتب السلم الاجتماعي المرتكز على القوة، لذا لم يكن سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام يُوَرِثُون المرأة والطفل، بل كانوا يقولون لا نورث من لا يركب فرسا ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدوا، وتحولت المرأة إما إلى أمة تسبى، أو سلعة تباع وتشترى بالمهر الذي كان يقبضه وليها ثمنا لبيعها، ولعل أكثر أشكال ذل المرأة وجد في بعض الحالات التي كان فيها الإبن يرث زوجة أبيه، إذ يلقي عليها ثوبه ليثبت ملكيته لها وبعد ذلك له الخيار في أن يتزوجها أو يعضلها، إلا إذا افتدت نفسها منه، أي دفعت له ثمن نفسها، وقد سمي ذلك ذلك بالضيزن[٢] أو المقت"[٣]

هذا الوضع المزري الذي كانت تعيشه المرأة لم يكن مرتبطا من الناحية الزمانية بالعصر الجاهلي فقط، ولم يكن مرتبطا من الناحية المكانية بجزيرة العرب فقط، ولم يكن مرتبطا من ناحية الجنس بالعرب وحدهم، بل إن هذا الوضع كان شائعا في شتى العصور، وفي كل الأمكنة، وتمارسه كل الأجناس، ولم يتبدل هذا الوضع إلا حين جاء الإسلام

هذه الإشارات السابقة غيض من فيض وقليل من كثير مما كانت عليه المرأة قبل الإسلام، وإن المتمعن في هذا الوضع ولاسيما فيما قاله المستشرقون، يعتقد من أول وهلة أن ما قاله المستشرقون يصدق على هذا الوضع التي كانت المرأة تعيشه قبل الإسلام، أما إذا قيل إن كلام المستشرقين إنما يتعلق بوضع المرأة في ظل الإسلام! فإن العجب يأخذ بلب العاقل ويكاد الحليم منه يطيش!

ووسط هذا الخضم نطالع نقودا ذاتية لبعض المستشرقين تتعلق بقضية المرأة ووضعها في الإسلام، وكيف أن الإسلام أنصفاها، وأعاد لها حقوقها المسلوبة، وبوئها مكانتها اللائقة بها.

وإن أول ما نطالع من تلك النقود، نقدا مهما انطوى على عدد من الحقائق التي

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي، طـ: دار الساقي – بيروت، طـ الرابعة سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، جـ٨، صـ١٩٩،٢٠٠

(٢) الضيزن الذي يتزوج امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، انظر: تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني،أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، طـ: دار الهداية – الكويت، بدون تاريخ، جـ٣٥، صـ٣٢٨

(٣) الإسلام والمرأة قراءة نسوية في أسس قانون الأحوال الشخصية: مية الرحبي، طـ: الرحبة للنشر والتوزيع – دمشق، سوريا، طـ الأولى سنة ٢٠١٤م، صـ٤٤

قررها الإسلام بشأن المرأة، وفي الوقت ذاته ينبئنا بتلك التمويهات والافتراءات التي اعتاد عليها العاملون في حقل الاستشراق والدراسات الإسلامية من الغربيين، فضلا عما كان يثيره رجال الدين الغربيين من أمثال هذه الافتراءات بين العامة وغيرهم من المثقفين، وللأسف فقد كانت تلقى قبولا ورواجا بينهم نظرا لصدورها من سلطة تمثل عندهم سلطة دينية عليا، هذا النقد الذي نتحدث عنه هو للمستشرق الفرنسي فرانسوا ماري آروويه، الشهير بـ فولتير، وقد نقله إلينا د شوقي خليل، على أنه اعتراف من الاعترافات التي سجلها فولتير، فقال " يعترف فولتير بالتالي: لقد نسبنا إلى القرآن كثيرا من الأباطيل، ولكنه في الحقيقة براء منها، فالقسس صنفوا كتبا كثيرة في ذم المسلمين، وكتب كتابنا - وهم لا يحصرهم العد - مؤلفات واسعة، استطاعوا بها أن يجعلوا النساء من حزبهم، ذلك بأنهم نقلوا إليهن بأن محمدا يعتبرهن حيوانات ذات ذكاء، وأن الشريعة الإسلامية لا تراهن إلا إماء لا يملكن من دنياهن شيئا، ولا حظ لهن في الحياة الآخرة "[1] ثم ينقل إلينا د شوقي أبوخليل ما قرره فولتير تجاه هذا المنهج المتعمد من جانب القسس والكتاب الغربيين بشأن كتاباتهم وأحاديثهم عن وضع المرأة في الإسلام، فيقول " ويقرر فولتير: وبديهي أن هذا الكلام باطل، ومع ذلك فقد كان الناس يصدقونه، ويقول: - أي فولتير - إن الذين عزوا إلى القرآن أنه يخفض من مقام المرأة، إنما يعزون إليه ذلك بهتانا وكذبا "[2]

يرى المطالع لهذا النقد، ما انطوى عليه من الإشارة إلى أسلوب التلفيق المتعمد من جانب المستشرقين، وذلك بأن هؤلاء الكتاب يموهون على القراء فيدسون في كتبهم وفي المادة العلمية التي احتوتها دفات تلك الكتب كثيرا من الأكاذيب والافتراءات والأباطيل، ولا عجب في ذلك فهذا ديدنهم وتلك أساليبهم.

ومن قبيل النقود الذاتية فيما يتعلق بوضع المرأة في الإسلام، ما قاله المستشرق الفرنسي روجيه جارودي، وبالرغم من إسلام هذا الرجل تأثرا بالإسلام وتعاليمه بعد طول مقارنة بينه وبين غيره من الديانات، فاطمأن إلى أن الإسلام هو خير الأديان وأن تعاليمه أصدق التعاليم وأوفاها وأنسبها، أقول بالرغم من إسلامه إلا أن شهادته تعبر عن رؤية صحيحة صادقة ولها ثقلها في حقل الدراسات الاستشراقية، هذا النقد سجلته موسوعة بيان الإسلام حيث ورد فيها ما نصه " ويرى جارودي أن وضع المرأة في الإسلام هو الوضع الأمثل، فقد رفع الظلم عنها، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، وصان المرأة وحافظ على كرامتها "[3]

---

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، صـ١٣٢

(٢) المصدر السابق: صـ١٣٢

(٣) موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات، القسم الأول - القرآن الكريم، إعداد: نخبة =

ويتابع جارودي حديثه عن منزلة المرأة، فيقول: "إن القرآن من وجهة نظر اللاهوتية، لا يحدد بين الرجل والمرأة نفس العلاقة من التبعية الميتافيزيقية، فالمرأة في القرآن توأم وشريكة للرجل لأن الله خلق البشر ككل شيء {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات:٤٩] والقرآن لا يحمل المرأة المسؤولية الأولى للخطيئة "[١]

ويسترسل جارودي في حديثه عما أولاه الإسلام للمرأة من مكانة، في مختلف المستويات، وهنا يحدثنا عن مسألة القوامة، تلك المسألة التي مثلت غصة في حلوق المستشرقين وغيرهم، وطالما شنعوا بها على الإسلام، عن هذه المسألة يتحدث جارودي فيقول " صحيح أن القرآن تماما كالتوراة والإنجيل يمنح الرجل سلطة على المرأة، فهذه اللامساواة هي سمة ثابتة في جميع المجتمعات القائمة على نظام سلطة الأب، وما زالت حتى اليوم لم تختف تماما في أي بلد من البلدان، ولكن إذا نحن قارنا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فإنها تسجل تقدما لا مراء فيه ولا سيما بالنسبة لآثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة "[٢]

ويتحدث جارودي عن تلك الحرية التي أعطاها الإسلام للمرأة، فجعل لها ذمة مالية مستقلة، وجعل كفالتها على غيرها من الأب والزوج، حتى لو كانت من ذوي الأملاك، كل هذا بعد أن كانت المرأة في غير عهد الإسلام وظله تمثل متاعا أو تركة تورث، للغير مطلق الحرية في تملكها وبيعها أو إرثها، هذا بالنسبة للتشريعات القديمة قبل الإسلام، ولم يتغير الحال كثيرا في ظل التشريعات الحديثة إلى وقت قريب، بل ظلت المرأة تعاني انتقاص حقوقها، يقول جارودي " في القرآن أن المرأة تستطيع التصرف بما تملك وهو حق لم يعترف لها به في معظم التشريعات الغربية ولا سيما في فرنسا إلا في القرن التاسع عشر والعشرين "[٣]

ولا تزال النقود الذاتية تتوالى من جانب جارودي فيما يتعلق بالمرأة في ظل الإسلام، وهنا يتحدث عن نظام الميراث، وكيف أن نظام الإرث الخاص بالنساء عموما الذي وضعه الإسلام لهن ليس فيه امتهان أو انتقاص لحقوقهن، بل راعى فيه الإسلام أبعادا تتعلق بدرجة القرابة بين الوارث والمورث، وموقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال، والعبء المالي الذي يتحمله الرجل أو المرأة في تيار الحياة وتجاه الآخرين، كل هذه الأبعاد رعاها الإسلام وعلى أساس منها حدد الأنصبة للوارثين، يقول جارودي " أما

=

من كبار العلماء، جـ٦، صـ٨

(١) وعود الإسلام: روجيه غارودي، طـ: دار الرقي – بيروت، مكتبة مدبولي – القاهرة، طـ الثانية سنة ١٩٨٥م، صـ٧٨

(٢) المصدر السابق: صـ٧٨

(٣) وعود الإسلام: روجيه غارودي، صـ٧٨

في الإرث فصحيح أن للأنثى نصف ما للذكر، إلا أنه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة أعباء مساعدة أعضاء الأسرة الآخرين على عاتق الذكر، المرأة معفاة من كل ذلك "[١]

ويشير جارودي إلى الطلاق وكونه أصبح حقا من الحقوق التي قد تطالب المرأة به عند تعذر حياتها مع الزوج، هذا الحق لم يمنحه إياها إلا الإسلام، حتى المرأة الغربية المعاصرة لم تتمكن من هذا الحق إلا منذ وقت قريب، يقول " ويعطي القرآن ومأثور الحديث في صحيح البخاري المرأة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المرأة في الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرنا "[٢]

ثم يأتي جارودي إلى أكثر القضايا الشائكة المتعلقة بالمرأة، وهي قضية تعدد الزوجات، تلك القضية التي طالما لاكتها ألسنة المستشرقين ومن سار على دربهم من المستغربين والعلمانيين، يشنعون بها على الإسلام في تعامله مع المرأة، هنا يبين جارودي أن التعدد نظام لم يأت به الإسلام إنما كان مستقرا قبل مجيئه، والإسلام أحاط التعدد بسياج من الضوابط التي تضمن إقامة الحياة الزوجية في جو هادئ آمن غير مضطرب حتى مع وجود التعدد، يأتي على قمة هذه الضوابط ضابط العدل، وإن التحري في إقامة مثل هذا الضابط الذي فرضه الإسلام قد يجعل من التعدد شيئا متعذرا، يقول " وفي القرآن إقرار بتعدد الزوجات، إلا أن هذا التعدد لم يؤسسه هو، كان موجودا من قبل، وقد فرض عليه، على العكس، حدودا مثل العدل التام بين مختلف الزوجات في النفقة والمحبة والمعاشرة الجنسية، وهي قواعد إذا ما جرى تطبيقها بحرفيتها تجعل تعدد الزوجات مستحيلا "[٣]

وعلى خطى جارودي نرى مستشرقا آخر يسير، هو المستشرق الفرنسي إتيان دينيه، الذي أسلم عام ١٩٢٧م بعد بحث وتدقيق في دراسة الإسلام ومناقشات ومجادلات، وبعد أن وقف على معالمه الصحيحة وسماته الفريدة، كل هذا أدى به أنه " علم حق اليقين أن الدين عند الله الإسلام فخرج من (دينيه) إلى (ناصر الدين) "[٤] يطالعنا هذا المستشرق الذي أسهم بنقد ذاتي هو من الأهمية بمكان لتعلقه بأكثر المسائل الشائكة في قضية المرأة في الإسلام، ألا وهي مسألة: تعدد الزوجات، التي أدلى فيها سلفه جارودي بدلو طيب، وهنا يسير على نفس الخطى ويقدم لنا تناولا طيبا يبين من خلاله موقف الإسلام من هذه المسألة، ويزيد هذا الموقف بيانا حين يقارن بين الإسلام

---

(١) المصدر السابق: صـ٧٨

(٢) وعود الإسلام: روجيه غارودي، صـ٧٨،٧٩

(٣) المصدر السابق: صـ٧٩

(٤) أشعة خاصة بنور الإسلام: ناصر الدين دينيه، طـ: المطبعة السلفية – القاهرة، طـ سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م، صـ٩

والديانة المسيحية في تعدد الزوجات، ويبرز الموقف الإسلامي الذي هو أدعى للقبول لقربه من الفطرة السوية، وبعده عن الرذائل والفواحش التي قد يجرها الأخذ بمبدأ التوحيد في الزواج، وهنا تبرز عظمة الإسلام وسمو تشريعاته، يبدأ دينيه حديثه متسائلا أو ساخرا – إن شئت أن تسميه- " هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ وإلا فهؤلاء مثلا ملوك فرنسا –دع عنك الأفراد – الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام، إن تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي أرادته، فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه.. على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي: الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين، وإن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق، وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية "[١]

ويبدو أن هذه القضية – تعدد الزوجات – لما تمثلة من أهمية كبرى لدى المشتغلين بالدراسات التي تعنى بشأن المرأة، وبخاصة الدراسات الاستشراقية، تلك التي تحاول الانتقاص من شأن المرأة في الإسلام، ومن ثم فهي تتكأ على هذه القضية في الترويج لمقاصدها، لذلك نرى النقود الذاتية للمستشرقين تكثر حول هذه المسألة، ومن هذا القبيل ما تحدث به المستشرق الفرنسي هنري دي كاستري، حول قضية تعدد الزوجات، فبدأ حديثه بإنكار هذه الحملات المنهجة التي يشنها البعض على الإسلام متعللين بهذه القضية، بل إنهم يرون أن تعدد الزوجات يصل إلى حد ارتكاب الجريمة، فهو عمل منكر أتى به الإسلام، لذلك يعمد البعض إلى وصف الإسلام بكثير من الأوصاف المنكرة، يقول كاستري " يرى الناس في أكثر الأزمان الوسطى، أن أكبر عمل أتى به النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هو إباحة تعدد الزوجات، لأنه توصل بذلك إلى استجلاب الرجال وتطرف (بيرون) فقال: والنساء، لأنه وعدهم بتعدد الأزواج، واعتمد القصاصون على هذه الروايات الكاذبة، فوصفوا الإسلام بأنه دين الجاموس والجمال وجميع الحيوانات! "[٢]

(١) المصدر السابق: صـ٣١،٣٢

(٢) الإسلام خواطر وسوانح: هنري دي كاستري، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، قدم له وعلق عليه: د/محمود النجيري، طـ: دار طيبة – القاهرة، طـ الأولى سنة ٢٠٠٨م، صـ٨٥

وبعد هذا العرض لهذه الحملات الممنهجة ضد الإسلام وكانت مطية أصحابها مسألة تعدد الزوجات، يطالعنا كاستري بإبداء استغرابه وتعجبه من هذا التشنيع الذي شنع به هؤلاء على الإسلام فيما يخص هذه المسألة، ويرى أن هذا كله من قبيل المبالغات الغير مبررة لكونهم يحملون الإسلام ما لا يحتمله من تلك المساوئ والرذائل الخلقية التي يظنون أنها ناجمة عن تعدد الزوجات، ويقرر كاستري أنها ناجمة عن التوحيد وليس التعدد، والإسلام كنظام عام يجرم أي جريمة خلقية، ويرى كاستري أن ما شنع به هؤلاء على الإسلام إنما هو مجرد افتراءات ملؤوا بها كتبهم ليس أكثر، يقول " ويرى القارئ مما تقدم: أن الناس بالغوا كثيرا في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين، إن لم نقل: إن ما نسبوه إليه من ذلك غير صحيح، فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة التي يشير إليها الأب (بروجلي) بل المعقول أنه من شأنه تلطيفها، على أنني لست أدري إن كانت تلك الرذائل أكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السياح الذين يرون أمرا في فرد فيجعلونه عاما من غير تثبت فيه، ولولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئا يملؤون به مؤلفاتهم "[1]

وإذا انتقلنا من دي كاستري إلى مستشرق آخر هو المستشرق الفرنسي إميل درمنغم، سنجد كلامه عن المرأة ليس فقط مجرد قول ينتمي إلى حقل النقود الذاتية، بل سنجده يعدد جوانب إنصاف الإسلام للمرأة ويشير إلى الحقوق الكثيرة التي ردها الإسلام للمرأة بعد أن كانت سليبة، ثم تراه يعرج على إبراز الجوانب الإيجابية التي يعطيها التعدد الناجم عن زواج شرعي صحيح، بينما يعطينا التسري وغيره من اتخاذ الخدينات والبغايا المخاطر التي من شأنه هدم المجتمعات، كل هذا البيان يعرضه درمنغم بواقعية وتجرد حين يقارن بين وضع المرأة قبل الإسلام ووضعها بعد الإسلام، ويستشهد على ذلك بنقول من النصوص النبوية وكلام للصحابة في هذا الشأن، يقول درمنغم " مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسَّن حالها، قال عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- (مافتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحي في أمرهن مبينا لهن) وقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم) أجل إن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن ونهى عن تزويج الفتيات كرها وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق، ولم يكن للنساء نصيب في المواريث أيام الجاهلية، فأنزلت الآية التي تورث النساء، وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وأمر بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء، وأباح تعدد الزوجات ولم يوصي الناس به، وأباح الطلاق أيضا مع قوله (أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق) وليس

(١) المصدر السابق: صـ٩١

مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحقوق الطبيعية مع ذلك، ولم يفرضه كتاب العهد القديم على الآباء، وإذا كان هذا المبدأ قد أصبح سنة في النصرانية فذلك لسابق انتشاره في بلاد الغرب، وذلك من غير أن يحمله رعايا (نيرون) إلى بلاد إبراهيم ويعقوب - عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ- وأيهما أفضل: تعدد الزوجات الشرعي، أم تعدد الزوجات السري؟ إن تعدد الزوجات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر "[١]

وفي هذا المقام نطالع نقدا ذاتيا للمستشرق الفرنسي ألفونس دي لامارتين، وهو على قصره يمثل تجلية للحقيقة الغائبة عن كثير من المستشرقين، إذ إنه يتعلق بأن حق المرأة وإعطائها المكانة اللائقة بها كل هذا كان يمثل قضية رئيسة من القضايا الدينية التي بعث النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- لبيانها للناس، وقد أشار لا مارتين في هذا النقد إلى حق طالما كانت المرأة قبل الإسلام تعاني من فقدانه، ألا وهو حق التملك، بل إن المرأة نفسها قبل الإسلام كانت تُمتلك أو تُملك! فجاء الإسلام وكفل لها حق التملك وجعل لها ذمة مالية مستقلة، وكان هذا انتصارا أحرزته المرأة في ظل الإسلام، يقول لامارتين "وكرس محمد حقوق الملكية للنساء، وقد كن - إلى ذلك العهد - محرومات من كل حق في أن يمتلكن شيئا، في سياق الحياة الزوجية، وأوصى بالأرامل أولادهن وجعل (الجنة تحت أقدام الأمهات) "[٢]

ويبدو أن قضية المرأة ومنزلتها في الإسلام كانت عامل جذب مهم لمدرسة الاستشراق الفرنسي، فمعنا هنا أيضا أحد كبار رجال هذه المدرسة، وهو المستشرق الفرنسي لويس سيديو وكان ممن أدلوا بدلوهم في قضية المرأة ومكانتها في الإسلام، وقد مر بنا آنفا حديثه القيم عن القرآن، وهنا يتابع حديثه عن القرآن بيد أنه يستخلص منه ما يدل على أن الإسلام رفع من شأن المرأة وليس كما يقول الآخرون ويروجون أن الإسلام انتقص المرأة وسلبها حقوقها، هنا في هذا النقد الذاتي الذي نقدمه لسيديو يتحدث عن أن القرآن رفع من شأن المرأة، ويستشهد على ذلك بحديث القرآن عن الميراث وكيف أنه جعل للمرأة حقا مفروضا بعد أن كانت في جاهليتها لا ترث أصلا، وتحدث أيضا عن القوامة وحقوق الأيامى من النساء، وغير ذلك من الأمور التي تعرض القرآن لها فيما يخص المرأة، يقول " إن القرآن وهو دستور المسلمين، رفع شأن المرأة بدلا من خفضه، فجعل حصة البنت في الميراث تعدل نصف حصة أخيها مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية، وهو - أي القرآن - وإن جعل الرجال قوامين على النساء بين أن للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها، وأراد ألا تكون الأيامى جزءا من

(١) قالوا عن الإسلام: د/عماد الدين خليل، طـ: الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض، طـ الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، صـ٤١٠،٤١١

(٢) مختارات من كتاب حياة محمد: ألفونس دي لامارتين، صـ١٢١

ميراث رب الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبضن مهورهن وأن ينلن نصيبا من أموال المتوفى "[١]

ومن أروع النقود الذاتية فيما يتعلق بمنزلة المرأة في لإسلام ذلكم النقد الذي قدمه لنا المستشرق البريطاني هاملتون جب، وفيه يتحدث عن التشريع الإسلامي الخاص بالمرأة، وفيه أعطيت المرأة كامل حقوقها السليبة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أمرين:

أولا: على نظرة الاحترام والتقدير التي نظر بها الإسلام للمرأة، وهي النظرة الحقيقية التي يبديها التشريع الإسلامي للمرأة، وكل ما دون ذلك أو يخالفه فقد يكون من قبيل الآراء الفقهية التي صدرت في ظروف معينة ومناسبات معينة، لا تنهض أن تكون دلالة عامة على التشريع، إنما هي مجرد آراء فقهية صدرت في سياقات معينة

ثانيا: يدل على تحديد الفكرة التي أراد الإسلام إرسائها وتعميمها فيما يتعلق بمعالمة المرأة، وهي الفكرة التي تقوم على الاحترام والود، تلك هي أطر التشريع الإسلامي فيما يتعلق بالمرأة، وهو تشريع – كما ترى – لا يدانيه تشريع آخر في ديانة أخرى، يقول جب " حين ننتهي من حذف الانحرافات [الفقهية المتأخرة] وشجبها، تعود تعاليم القرآن والرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- الأصلية إلى الظهور في كل نقائها ورفعتها وعدالتها المتساوية إزاء الرجل والمرأة معا، عندئذ نجد أن هذه التعاليم تعود إلى المبادئ العامة وتحدد الكرة التي يجب أن يوضع ويطبق القانون بمقتضاها أكثر من أن تعين صيغا حقوقية حاسمة، وهذه الفكرة فيما يخص المرأة لا يمكنها إلا أن تكون نابضة بالود الإنساني وبشعور الاحترام لشخصيتها والرغبة في محو الأضرار التي ألأحقها بالمرأة سير المجتمع سيرا قاسيا وناقصا فيما مضى، وبعدما ننتهي من استخلاص هذه الفكرة وهضمها، يمكننا أن نفهم التشريع الخاص بالقرآن فهما صحيحا، حالما نتوصل إلى ذلك نرى أن الموقف الإسلامي تجاه المرأة والطريقة الإسلامية في فهم شخصيتها ونظامها الاجتماعي، وطريقة حماية التشريع لها، تفوق كثيرا ما هي عليه في الديانات الأخرى "[٢]

وإذا أردنا أن نتغيا ختاما مسكا لمثل هذه النقود الذاتية للمستشرقين فيما يخص مكانة المرأة في الإسلام، فإننا لن نجد نقدا يعبر عن هذا المقصد إلا أن يكون صادرا من جنس من نتحدث عنهن، أعني: صدوره من امرأة، وفي هذا المقام تطالعنا المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، بحديث عن المرأة في الإسلام، وهو حديث ذو أوجه متعددة، فقد تحدثت عن أن العرب من واقع إسلامهم هم الذين أولوا المرأة معاملة خاصة تنم عن مدى الاحترام والتقدير، بل إنهم قاوموا تلك البقايا الجاهلية التي من

(١) قالوا عن الإسلام: د/عماد الدين خليل، صـ٤١٨

(٢) المصدر السابق: صـ٤٢٤

شأنها الانتقاص من حق المرأة، وهم بهذا المنهج المعتدل كانوا بمثابة المعلمين للأوربيين الذين أخذوا عنهم هذا المنهج الراقي في معاملة النساء، تقول هونكه " قاوم العرب كل التيارت المعادية واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة والطبيعة، وجعلوا من منهجهم مثالا احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاكا، وأصبح الاستمتاع بالجمال والغزل جزءا من حياة الأوربيين شاؤوا أم أبوا "[١]

ثم تؤكد هونكه أن المكانة التي احتلتها المرأة في ظل الإسلام أعلى وأرفع من تلك المكانة الساقطة التي كانت عليها قبل الإسلام، ثم أخذت تعدد صورا حية من الواقع الإسلامي كدليل على قولها، وقد ركزت على قضية التعليم والتعلم في حق المرأة تلك القضية التي كان للإسلام فيها قصب السبق، فقد سارع الإسلام إلى تعليم المرأة وكفل لها هذا الحق تماما كالرجل لا فرق بينهما في ذلك، وليس أدل على ذلك من نساء النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- وكذا بعض الصحابيات من المؤمنات، فقد حملن راية الدين فكان منهن محدثات ومعلمات وراويات للحديث وفقيهات ومجاهدات وشاعرات ومربيات فضليات، وغير ذلك مما يعد شاهد صدق على المكانة المميزة التي أعطاها الإسلام للمرأة تقول هونكه " ظلت المرأة في الإسلام تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية، ألم تكن خديجة زوج النبي الأولى التي عاش معها أربعة وعشرين عاما وأنجب منها ستة أطفال، أرملة لها شخصيتها ومالها ومكانتها الرفيعة في مجتمعها؟ لقد كانت خديجة نموذجا لشريفات العرب، أجاز لها الرسول أن تستزيد من العلم والمعرفة كالرجل تماما، وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد ويفسرن أحكام الدين، فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء ثم تنال منهم تصريحا لتدرس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة، كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات "[٢]

وبعد هذا الاستعراض – وهو غيض من فيض وقليل من كثير - لبعض حقوق المرأة التي كفلها لها الإسلام بعد أن كانت حقوقا مهضومة سليبة، تعطينا زيغريد هونكه حكمها الرئيس في هذه القضية، ردا على ما تناقله المستشرقون في دراساتهم ورددوه في منتدياتهم من كون الإسلام ظلم المرأة وانتقصها حقها، يتلخص هذا الحكم في كلمة قليلة الألفاظ كثيرة المعنى، وقد أصدرته في صيغة التوكيد والتأكيد حين قالت " إن النساء في صدر الإسلام لم يكن مظلومات أو مقيدات "[٣] وهو حكم كما ترى أدعى

(١) شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، طـ: دار الجيل – بيروت، دار الآفاق الجديدة – بيروت، طـ الثامنة سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، صـ٤٦٨

(٢) المصدر السابق: صـ٤٧٠

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، صـ٤٧٠

للقبول لاتسامه بالصدق، أما غيره فأولى بالرفض لمجافاته الصدق ومجانبته للواقع

- **التسامح في الإسلام والنقد الذاتي للاستشراق:**

التسامح من أهم السمات التي يتميز بها الإسلام، لكن يبدو أن هذه السمة لم ترق لكثير من المستشرقين، فراحوا يشنعون على الإسلام بأنه دين يحث على العنف، وأخذوا يروجون لشبهة: أن الإسلام انتشر بالسيف، ومن ثم فهو دين جاء بالعنف والتطرف والكراهية، وكل هذه الخصال ركائز أساسية يرتكز عليها الإسلام ويدعو أتباعه إليها في كل زمان ومكان!

كانت هذه الفرية من أكثر الفرى التي عمل المستشرقون على نشرها بين الناس متخذين في سبيل ذلك كافة السبل والطرائق، فصاروا يتهمون الإسلام في كل محفل بأنه أكثر الأديان نزوعا إلى العنف والتطرف، وسطروا كثيرا من المؤلفات التي تروج أن القرآن الكريم أكثر الكتب الدينية دعوة للحرب والقتال، حرص المستشرقون على ترويج مثل هذه المقالات والأفكار حتى صارت – للأسف - من القناعات المسلم بها عند كثيرين لا سيما في الغرب بل وتجذرت في أفهامهم وترسخت في عقولهم.

وأمام هذا السيل الجارف من الافتراءات التي أطلقها المستشرقون على الإسلام فيما يتعلق بسماحته، نجد في المقابل كثيرا من النقود الذاتية من جانب بعض المستشرقين التي تتعلق ببيان مدى سماحة الإسلام ودعوته إلى السلم والسلام، وأنه دين لم ينتشر بالسيف كما يروج له، وأن القرآن ينبذ العنف والتطرف.

وإن أول ما نطالع من تلك النقود الذاتية التي تتحدث عن سماحة الإسلام في أنه لم ينتشر بالقوة وأن المسلمين لم يفرضوا دينهم على أهل البلاد المفتوحة، بل إن السبب الأول في اعتناق هؤلاء للإسلام هو سماحة المسلمين وعدالتهم التي كانت ديدنهم في التعامل، هذه العدالة وتلك السماحة التي علمها لهم دينهم، أفاض في الحديث عن هذا كله غوستاف لوبون، وكان مما قاله " إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل... ولم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب "[1]

ويرفض لوبون تلك المزاعم التي تروج أن الإسلام ممثلا في شخص النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عامل اليهود والنصارى بالعنف والقسوة، فيقول مستنكرا " وكان محمد

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ١٣٤ بتصرف بسيط

كثير المسامحة لليهود والنصارى خلافا لما يظن "[١]

وفي موضع آخر يقرر لوبون أن العدالة والتسامح ووضوح تعاليمه كانت هي الصفات الأبرز سببا في اعتناق الإسلام، وما تمتع به الإسلام من العدل والإحسان كان هو السبب في انتشاره، لا كما يروج المستشرقون من أن انتشاره كان بسبب البطش والغلبة والقهر، يقول لوبون " وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام "[٢]

وفي ذات السياق نطالع نقدا آخرا للمستشرق البريطاني هنري ستوب، وفيه يقرر: أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وأن مثل هذه الأقوال إنما تنم عن وعي ساذج لأصحابها، يقول ستوب " إنه سوقي ساذج ذلك الذي يذهب إلى أن محمدا قد نشر ديانته بالسيف، وأنه لم يجبر العرب فقط على قبول عقيدته، لكنه فرض على خلفائه عهدا أبديا وتكليفا ملزما بأن يعملوا على استئصال المسيحية والأديان الأخرى لكي يحل الإسلام محلها ويصبح ديانة عالمية "[٣]

ولكي يقيم هنري ستوب دليلا واضحا على قوله حتى لا يكون من قبيل الأقوال المرسلة، نجده يعكف درسا وتحليلا للحروب والغزوات التي خاضها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وبعد هذه الدراسة المتأنية إذا به يتوصل إلى نتيجة ساقها إلينا في قوله " وإني لا أجد في الحروب التي خاضها محمد في الجزيرة العربية إلا حروبا ضد الوثنية وليست لإكراه الناس على الإسلام، وأن محمدا نفسه قد أعطى أمانا وحماية لليهود والنصارى في الجزيرة العربية، ولم يستخدم العنف ضدهم البتة بهدف فرض العقيدة "[٤]

ويواصل هنري ستوب نقوده الذاتية حول تلك الشبه والافتراءات التي أثارها المستشرقون ضد الإسلام في أنه دين العنف والقسوة، ينفي ستوب كل هذا، وبعد دراسة مستفيضة لتاريخ الإسلام عموما ولتاريخ الفتوحات خصوصا يقرر: أن الإسلام تعامل مع شعوب الدول التي فتحت على أساس من التسامح، وأن الإسلام لم يمارس ضدهم أي لون من ألوان الإكراه أو الممارسات القسرية في دين أو عبادة، وأنه قد كفل لهم الحرية المطلقة مما لم يكونوا ألفوه أو تعودوه حتى في ديانتهم التي يدينون بها، يقول ستوب " من كل هذا يتبين أن محمدا وأتباعه لم يشنوا الحرب لكي يفرضوا ديانتهم على الآخرين، ولكن من أجل توسيع دولتهم، ولكن يبقى أن نذكر أنه مع السيرة الحكيمة التي

(١) المصدر السابق: صـ١٢٨

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ١٣٢

(٣) الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، صـ٦٠

(٤) المصدر السابق: صـ٦١

انتهجوها قد ازدادت أعداد المتحولين إلى الإسلام مع ازدياد فتوحاتهم، وأنهم لم يكرهوا الأمم المفتوحة على الإيمان بدينهم خوفا من القتل أو فرارا من التعذيب أو السجن أو أساليب الاضطهاد الأخرى "[١]

ومما يتعلق بسماحة الإسلام ما أثاره أحد المستشرقين من نقد ذاتي يتعلق بالحديث عن الرقيق وكيف حددت الشريعة الإسلامية الأطر التي من الواجب أن تتم معاملة الرقيق ضمنها، وهذه الأطر عبارة عن سياج منيع من الرحمة والتسامح واللطف حتى في القول، الأمر الذي لم يتوفر للرقيق في أي شريعة أخرى، فضلا عن أن النظم التي تدعي المدنية والحضارة كانت تعامل أرقائها معاملة الجاهليين، كل هذا يدل على مدى اللطف والرحمة التي غلف بها الإسلام، تحدث عن هذا الأمر المستشرق فان دنبرغ حين قال " "لقد وضع للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الإنساني النبيل ففيها تجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تسير في طليعة الحضارة"[٢]

إذا كانت هذه هي المعاملة التي كفلها الإسلام للرقيق وفرضها على أتباعه نحوهم، فما بالك بكيفية المعالمة التي فرضها الإسلام عموما على المسلم تجاه الآخر أيا كان نوعه أو جنسه أو دينه، إنها المعاملة التي تنبع مما انطوي عليه الإسلام من الرحمة واللطف والرقة والعدل والإحسان وغير ذلك من المكارم والشمائل، لا كما يزعم البعض من كون الإسلام انطوى في جوهره على العنف والقسوة وحض أتباعه على الكراهية والقتل وترويع المخالفين، إنها مزاعم باطلة، وأكبر دليل على ذلك حياة النبي محمد نفسه، لم يروي لنا التاريخ أنه انتقم لنفسه قط، بل كانت حياته كلها من مبدئها إلى ختمها نبعا من العطف والتسامح والمصالحة مع كل من حوله، ونطالع في هذا المقام أحد النقود الذاتية للمستشرق الفرنسي ألفونسو دي لامارتين، الذي يتحدث عن مدى التسامح الذي اتسم به النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- حتى مع أعدى أعدائه وخصومه، ولو كانت جبلة النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- مجبولة على غير ذلك لانتقم لنفسه منهم بعد أن ظفر بالنصر عليهم، ويتجلى هذا واضحا في فتح مكة حين دخلها منتصرا ظافرا، وقد كان أهلها قبل ذلك عاملوه بمنتهى القسوة والوحشة وشتى أنواع العنف طيلة ثلاثة عشر عاما، وكان له أن ينتقم منهم بعد أن تمكن من رقابهم، ومع ذلك أبى النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- أن يعاملهم بغير الرحمة واللطف والعفو، يقول لامارتين " ودخل بلده – آخر الأمر – ودخل الكعبة

(١) الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، صـ٦٣

(٢) الرق في الجاهلية والإسلام: إبراهيم محمد حسن الجمل، طـ: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – بدون تاريخ، صـ٩٠

حيث كان قد لقي ما لقي من الإهانة والشتيمة، ولم يثأر لنفسه من أي شيء ناله، وأدى في خشوع باسم إله إبراهيم كل مناسك الحج كما كانت شائعة عند العرب[١] فطاف بالكعبة وصعد التلال المقدسة بمكة "[٢]

وينطلق دي لامارتين من الحديث عن السماحة التي اتسم بها النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إلى الحديث عن أن هذه السماحة كانت سمة عامة للدين كله وإن أزكى صورها كانت في شخصية النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتعاملاته، وليس أدل على ذلك من أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا اليوم الذي دخل فيه مكة فاتحا منتصرا ظافرا لم يكره أحدا على اعتنق دينه بل ترك لهم مطلق الحرية في أن يظلوا على ما هم عليه أو يعتنقوا الإسلام، فجعل الأمر في شأن الدين إليهم لا إليه، بالرغم من تمكنه منهم، يقول لامارتين " وقد ترك لهم محمد الحرية في أن يعتنقوا دينه أو أن يظلوا على ما كانوا عليه من معتقدات، فاعتنق الإسلام كثرة كثيرة من الناس "[٣]

وكانت هذه السماحة التي تعامل بها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع أهل مكة حين دخلها فاتحا غالبا ظافرا، لم تكن هذه المعاملة وقفا على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وحده، بل إنها لما كانت مبدأ من مبادئ الإسلام فقد علمها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأصحابه، وكانت هي الركيزة التي انطلق منها المسلمون في تعاملهم مع الغير، وفي هذا السياق نطالع نقدا ذاتيا لغوستاف لوبون، يشير فيه إلى تسامح الفاتحين المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة، ويعطينا نموذجا على ذلك يتمثل في عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، لما فتح الله القدس على يديه، فأبدى من التسامح ما سطره التاريخ بحروف من نور، يقول لوبون " فلما دخل القدس أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم "[٤]

وإن التسامح لم يكن وقفا فقط على الرعيل الأول من جيل الصحابة، لأن الأمر كما أقول: نابع من جوهر الإسلام وما انطوى عليه من السماحة، لذلك كان التعامل بالتسامح هو ديدن المسلمين في كل زمان ومكان، وطالما أرسى الفاتحون المسلمون هذا

(١) هذه الكلمة تحتمل الإيهام، نظرا لأن العرب كانت لهم عادات معينة ترى في الحج يأتي على رأسها أن الكعبة كانت ملأى بالأصنام والأوثان إلى جانب تلك العادات المستكرهة التي كانوا يفعلونها في حجهم من الطواف بالبيت عرايا وما كانوا يؤدونه من الصفيق والصفير وغير ذلك من العادات التي أبطلها الإسلام، ومن ثم جاء حج النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومن بعده من المسلمين خلوا من تلك العادات الجاهلية.

(٢) مختارات من كتاب حياة محمد: ألفونس دي لامارتين، صـ٩٨

(٣) المصدر السابق: صـ٩٩

(٤) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ١٦٥

المبدأ في طبيعة العلاقة بينهم وبين الجميع، وفي هذا السياق نطالع نقدا ذاتيا يتحدث فيه السير توماس أرنولد، عن التسامح الذي اتسم به المسلمون تجاه أهل البلاد المفتوحة، حتى في أعصر المسلمين المتأخرة زمانا عن الجيل الأول من الصحابة والتابعين، هنا يتحدث عن محمد الفاتح المولود في القرن التاسع الهجري، ورغم بعد الفترة الزمنية إلا أن التسامح كان حاضرا بنفس بريقه ولمعانه الذي كان عليه في الأعصر الأولى، يقول السير توماس أرنولد " ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا، ومنح البطريق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق، وقد تسلم جنَّاديوس، أول بطريق بعد الفتح التركي، من يد السلطان نفسه، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية، وحصان محلى بطاقم فاخر "[1]

نرى من خلال هذه النقود أن المسلمين اتسموا بالتسامح المطلق تجاه غيرهم لا سيما الشعوب التي تغلب عليها المسلمون في فتوحاتهم الإسلامية، وقد كان من الممكن أن يمارس هؤلاء الفاتحين ضد أهل هذه البلاد القهر والقسر وغيرها من الأساليب التي لجأ إليها كثير من الممالك التي تغلبت على ممالك أخرى، بل كان من الممكن أن يلجأ المسلمون إلى إكراه غيرهم على اعتناق الإسلام، بيد أن هذا كله لم يكن، ذلك لأن التسامح مبدأ يسري في تعاليم الشريعة طولب به المسلمون في كل زمان ومكان وألزموا بتطبيقه مع كل الناس، وفي هذا المقام نطالع نقد ذاتيا للمستشرق والمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون، يعبر من خلاله أن زهو الانتصار وسطوة الغلبة كان من الممكن أن تعمي المسلمين عن الأخذ بمبدأ التسامح فيكرهوا غيرهم على اعتناق الإسلام قهرا وقسرا، لكن هذا لم يحدث، بل مارس المسلمون مع غيرهم مبدأ العدل والإحسان والتسامح، وهذا ما مكن للمسلمين من كسب مزيد من القلوب فضلا عن كسب مزيد من الفتوحات، يقول لوبون "كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويقهروهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في أنحاء العالم، ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت بعد غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرا، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا، فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانية وكل قطر استولوا

(١) الدعوة إلى الإسلام: سير توماس أرنولد، صـ١٧٠،١٧١

عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقا، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب ولادينا مثل دينهم، وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم "[١]

وهذا المعنى الذي ذهب إليه لوبون يقرره أيضا المستشرق البريطاني توماس أرنولد حين نقف على نقد له يؤكد فيه أن المسلمين لم يلجؤوا بحال من الأحوال إلى أسلوب الإجبار فيما يخص العقيدة، وأنهم لم يمارسوا قسرا يذكر لإكراه غيرهم على اعتناق عقيدتهم، ولم يسجل التاريخ حالة إرغام واحدة مارسها المسلمون ضد غيرهم لإجبارهم على اعتناق دينهم، بل يتوسع أرنولد في تقريره حين يشير أن التاريخ لم يسجل محاولة واحدة قام بها المسلمون في سبيل التخلص من الأديان الأخرى وبالأخص المسيحية، كما فعلت الطوائف المنتمية إليها مع بعضها البعض، ولو أراد المسلمون ذلك لفعلوا وقد تهيأت لهم الأسباب آنذاك، لكنهم لم يفعلوا، لأنهم أبوا أن يتعاملوا بغير التسامح، يقول السير توماس أرنولد " ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دين الإسلام من أسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتي مذهبا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة خمسين وثلثمآئة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالا تاما عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومة الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم "[٢]

هذا التسامح الذي كان يفيض من المسلمين على كل من يتعاملون معهم من غيرهم، يؤكده المستشرق الفرنسي ألدوميلي، حين نقف على نقده الذي صرح فيه أن كثيرا من الشعوب التي خضعت للمسلمين وكانت من قبل قد خضعت لغيرهم، اعترفت هذه الشعوب بالمغايرة الكبيرة بين كلا المعاملتين، فبينما وجدوا من غير المسلمين القسوة

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون، صـ٦٢٩،٦٣٠

(٢) الدعوة إلى الإسلام: سير توماس أرنولد، صـ٩٨،٩٩

والغلظة وأحيانا كثيرة الإبادة الجماعية، وجدوا من المسلمين الإحسان والرحمة والتسامح والاحترام، وتتجلى أبرز مظاهر هذا التعامل في كون هذه الشعوب مارست عقائدها بمنتهى الحرية بعد أن كانوا لا يستطيعون ممارستها بحال من الأحوال، الأمر الذي جعل هذه الشعوب ترى في العرب محررين لهم وليسوا غازين أو محتلين، عن هذا يتحدث ألدوميري فيقول " السكان الساميين في سورية ومصر، الذين قاسوا كل صنوف الضغط والهوان – على الأخص بسبب الضرائب – من قبل الحكومات الأجنبية التابعة للدولة البيزنطية أو المملكة الساسانية، لم يستطيعوا أن يروا في العرب إلا محررين مخلصين، كما أن المسيحيين القائلين بوحدة الطبيعية (طبيعة المسيح) في الشرق استطاعوا أن يعتمدوا على التسامح الإسلامي، بعد أن كانوا يخشون روح الاضطهاد من قبل نصارى القسطنطينية "[١]

وتسامح المسلمين مع غيرهم لم يكن في موقف دون آخر أو في مجال دون مجال، بل كان تسامحا عاما، شمل كل المجالات وكل الأحوال، ويبين لنا ألدوميلي أحد أهم المجالات التي برز فيها التسامح الإسلامي مع غير المسلمين وهو المجال العلمي، فلم يمارس المسلمون مع غيرهم قهرا أو استبدادا فيما يخص النشاط العلمي، بل سمح المسلمون لغيرهم بممارسة الأنشطة العلمية المختلفة ولم يمنعوهم من طلب العلم، بل إنهم بذلوا علومهم وفنونهم لمن سواهم، وهذا الوجه من التسامح لم يكن صادرا عن آحاد المسلمين فقط، بل تولى كبره الخلفاء ورؤساء الطوائف من المسلمين، حتى يوسم بالإلزام من الجميع، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم التسامح الذي تحلى به المسلمون تجاه غيرهم، يقول " والتسامح العظيم الذي تحلى به الخلفاء الأمويون، وملوك الطوائف، بل كذلك التسامح الذي اضطر إليه الموحدون حوالي نهاية سلطانهم، لم يمتد لواؤه على ما حكموه من شعوب، أو على المسلمين القادمين من أفريقية والمشرق فحسب، بل انبسط ظله أيضا على العلماء المسيحيين الذين أقبلوا مهطعين من أبعد الأقطار لتلقي العلوم في المدن المزدهرة التي لا تحصى، في ذلك القطر الساحر الآخذ بمجامع الألباب "[٢]

هذا التسامح الذي صار سليقة للمسلمين كان من أهم أسباب انتشار الإسلام في ربوع بلدان كثيرة، لاسيما حين كان يقارن أهل البلاد المفتوحة بين معاملة المسلمين معهم وما يغلفها من لطف ورفق واحترام وتسامح، ومعاملات غيرهم وما انطوت عليه من قسوة وغلظة، إن أوجه هذه المعاملة دعت المستشرقة الإيطالية لورا فيشا، أن توجه نقدا ذاتيا تبدي من خلاله ذهولها من سرعة انتشار الإسلام، ولم ترجع أسباب هذه

(١) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي: ألدوميلي، صـ٨١

(٢) المصدر السابق: صـ٤٥٤

السرعة إلى حرب أو بطش أوسيف أو خلافه مما علق عليه المستشرقون أسباب هذه السرعة، لكنها ارتأت أن السبب الأوحد الذي يمكن من خلاله أن نفسر سرعة انتشار الإسلام هو تسامح المسلمين، تقول " نشأ الإسلام مثل ينبوع من الماء الصافي النمير، وسط شعب همجي يحيا في بلاد منعزلة جرداء بعيدة عن ملتقى الحضارة والفكر الإنساني، وكان ذلك الينبوع غزيرا إلى درجة جعلته يتحول وشيكا إلى جدول ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد، وفي تلك المواطن التي ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبية سويت المنازعات وجمع شمل الجماعات المتناحرة، وبدلا من الثأر الذي كان هو القانون الأزلي والذي كان يشد العشائر المتحدرة من أصل واحد في رابطة متينة، ظهرت عاطفة جديدة، هي عاطفة الأخوة بين أناس تشد بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة من الأخلاق والدين، وما إن أمسى هذا الينبوع نهرا لا سبيل إلى مقاومته حتى طوق تياره الصافي العنيف ممالك جبارة تمثل حضارات قديمة "[١]، ثم تعود لورا فيشا لتستكمل حديثها أو ذهولها فتقول " إن التاريخ لم يشهد قط ظاهرة مثل هذه من قبل، ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقق بها الإسلام فتوحه، والتي تحول بها من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمسين إلى دين يؤمن به ملايين الناس"[٢] وبعد إبداء هذا الذهول تحاول المستشرقة لورا فيشا أن تضع يدها على مكمن السر في هذا كله، ثم نراها تقرر أن السر في ذلك يكمن في " أن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة، إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون إلى الشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض "[٣]

ومما يجدر ذكره أيضا في هذا المقام أن هذا التسامح الذي كان طابعا عاما عند المسلمين يميزهم عن كل من عداهم، اتسم به المسلمون وبلغوا فيه شأوا بعيدا في وقت كان العالم يفتقد فيه مثل هذا الخلق، فلم تكن سياسة الغالب أو الفاتح مع المغلوب سوى معاملة ترتكز على البطش والقهر والاستبداد المطلق، فجاء المسلمون الفاتحون وغيروا هذه السياسة، وعدلوا عن هذه القاعدة، واستعاضوا بدلا منها سياسة الرفق والتسامح، وقاعدة العدل والإحسان، وألزموا انفسهم بهذه السياسة، ولم يعدلوا عن هذه القاعدة، وهذا الأمر كان نقدا ذاتيا قدمه لنا المستشرق السويسري مارسيل بوازار، حين قال " منذ بدء الفتح العربي الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحا من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة، وفي زمن لم يكن فيه العنف

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فيشا، صـ٢١
(٢) المصدر السابق: صـ٢٢
(٣) دفاع عن الإسلام: لورا فيشا، صـ٥٩

يعرف شرعا ولا عاطفة، أصدر أبوبكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أول خليفة للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى جنوده التعليمات المشهورة المرنة كثيرا التي تختصر الروح الخلقي للقانون الإسلامي "[١]

وجدير بالذكر أن التسامح الذي أبداه المسلمون مع غيرهم، لا يفسر بأنه كان لسبب معين وهو أنهم فتحوا تلك البلاد عن طرق السلاح، ومن ثم فقد أبدوا هذا التسامح ليزيلوا ما قد يكون السيف أحدثه، وهذا وهم خاطئ، لأن كثيرا من الفتوحات الإسلامية لم تكن بالسيف، حتى لو كانت بالسيف فهناك ضوابط وأطر ومبادئ للحرب في الإسلام لا يتعداها المسلمون بيد أن تفصيل هذه الضوابط ليس محله هنا، ورغم ذلك فإن معظم الفتوحات الإسلامية لم تكن بالسيف، إنما كانت عن طريق التجارة ولم تكن التجارة هي السبب الرئيس بل كانت مجرد وسيلة، أما السبب الرئيس فيتخلص في الأخلاق التي كان يتخلق بها هؤلاء التجار، ويأتي على رأس هذه الأخلاق خلق التسامح، الأمر الذي يدعونا أن نقول: أن التسامح الخلقي الذي كان عليه تجار المسلمين كان سببا رئيسا في انتشار الدين الإسلامي، وهذا الأمر كان قد قرره المستشرق الروسي فاسيلي بارتلود، الذي قال " وانتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أي سلاح، فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري مسلمين، وتوغل التجار المسلمون فيما بعد نحو الشرق "[٢]

وتبلغ قمة التسامح التي أملاها الإسلام على المسلمين ليس فقط في تعاملهم كفاتحين مع أهل البلاد المفتوحة باللطف والرقة، بل بلغ هذا التسامح أوجه في هذا التعامل الإنساني الرائق والفائق حين كان يولي المسلمون غيرهم من النصارى وحتى من الفرس المناصب الإدارية الكبرى في الدولة الإسلامية، وهذا يبرز قمة التسامح الإسلامي مع غير المسلمين، فيما يتعلق بهذا الشأن نطالع نقدا ذاتيا للمستشرق السويسري آدم ميتز، الذي يبدي تعجبه من تولي غير المسلمين من المسيحيين والفرس وغيرهم المناصب الكبرى في الدولة الإسلامية حتى ليخيل للرائي أن النصارى هم الذين يحكمون لا المسلمين، يقول ميتز بعد أن لاحظ كثرة العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية " كأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام "[٣] وأخذ ميتز يعدد المناصب التي تولاها النصارى وغيرهم في ظل دولة

(١) قالوا عن الإسلام: د/عماد الدين خليل، صـ٢٧٤

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية: فاسيلي بارتلود، ترجمة: حمزة طاهر، تقديم: د/عبدالوهاب عزام، طـ: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، صـ٨٤

(٣) مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي، طـ: دار الشروق – القاهرة، طـ الثالثة سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، صـ٦٩

الإسلام إلى أن قال " وقد ظلت دواوين الحكومة، وخاصة ديوان الخراج، فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس، وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدا، حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكارا يكاد يكون تاما "[١]

فهذا بيان عملي لمدى تسامح الإسلام مع من لا ينتمي إليه، فقد عاش المخالفون للإسلام من اليهود والنصارى والفرس وغيرهم في ظله، عصورهم الذهبية، نظرا لأنه الدين الذي لم يبخس المخالفين له أي حق من حقوقهم بل إن هؤلاء المخالفين في ظل الدولة الإسلامية قد حققوا أعلى المكانات الاجتماعية، وحازوا قصب السبق في المكانة الاقتصادية، وتبوؤا أعلى المناصب الإدارية، كل هذا في ظلال الدولة الإسلامية التي أعلت من قيمة التسامح والاعتراف بالآخر.

(١) المصدر السابق: صـ٧٠

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنال المكرمات، الحمد الله الذي أعان ووفق، ويسر وأتم، أحمدك يا ربنا حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك

فقد اكتمل البحث على هذه الصورة التي أضعها بين يدي الأكارم من القراء، وإني لأرجو من الله أن تكون هذه الصورة على قرب من الكمال بقدر يجمل بها، ويضعها موضع القبول والرضا

وبعد أن حط القلم رحاله بعد رحلة في مباحث هذه الدراسة، فإني أسوق أبرز النتائج التي توصلت إليها، وهي كالتالي:

أولا: الاستشراق لم ينشأ في أي حضارة إلا في الغرب ولم تول حضارة حضارة أخرى اهتماما بدراسة تراثها وثقافتها وعلومها قدر ما أولى الغرب الشرق الإسلامي.

ثانيا: الاستشراق له أهداف كثيرة يحاول الوصول إليها وتحقيقها من خلال دراسة التراث الإسلامي، وهذه الأهداف تتنوع ما بين دينية وعلمية وسياسية واقتصادية وتربوية وأخلاقية، ويأتي الهدف الديني على رأس هذه الأهداف ويحتل المكان الأسمى عند المستشرقين.

ثالثا: الصورة السيئة التي رسمها المواطن الغربي في ذهنه عن الإسلام، إنما يتحمل وزرها المستشرقون.

رابعا: في ظل هذه الصورة القاتمة التي رسمها الاستشراق للإسلام تلوح في الأفق صورة هي إلى الجمال أقرب وإلى الحق أهدى وأقوم، أعنى الصورة الصحيحة للإسلام والتي هي بحق تعبر عنه هدفا وسلوكا وغاية، عقيدة وشريعة وأخلاقا، تلك الصورة رسمها بعض المستشرقين حين أجرى الله الحق على ألسنتهم وأقلامهم فراحوا ينقدون ما كتبه أضرابهم من دعاة الزيف والضلال ويبينون وجه الحق للإسلام، فكان منهم من كتب عن العقيدة ومنهم من كتب عن الشريعة ومنهم من كتب عن الأخلاق ومنهم من كتب عن نبي الإسلام ومنهم من كتب عن كتاب الإسلام إلى غير ذلك مما حواه الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا.

خامسا: إذا كانت الظاهرة الاستشراقية عكفت عن قرب على التراث الإسلامي بغية النيل منه، ومعرفة الجوانب التي يستطيعون من خلالها إثارة الشبهات حول الإسلام، إلا أن هذا العكوف كان فيه الكثير من الجوانب الإيجابية، لعل أبرزها: إحياء كثير من التراث الإسلامي عن طريق الترجمة والتحقيق والطباعة وغير ذلك من الأمور التي أسهمت بشكل كبير في إحياء ما كان مندرسا من التراث الإسلامي في جوانب كثيرة من جوانب الثقافة الإسلامية وفي مختلف الفروع العلمية

وقبل أن أطوي صحيفة النهاية في هذا البحث فإني أرفع إلى الكريم أكف الضراعة سائلا إياه أن أكون قد وفقت لما أصبو إليه وأرتجي، وأن يقع هذا البحث موقع القبول والرضا من قارئيه، فإن أجابني ربي إلى منيتي، فالفضل إليه وحده، فكم له من منن وعطايا وهبات، وإن كانت الأخرى، فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه براء

وحسبي أني اجتهدت قدر الوسع والطاقة، وإني لأطمع أن أنال ثواب المجتهدين، فقد كفل لهم ربي الثواب في كلا الحالتين والله وحده من وراء القصد، فهو ولي التوفيق والرشاد.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أهل الصدق والوفاء صلاة دائمة ما تبسم فجر فأتحف الجو بالضياء وانقشع هجر فطاب الود والصفاء. وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

المصادر

١. آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: د/محمد خليفة حسن أحمد، طـ: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٩٩٧م
٢. آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد: د/عمر بن إبراهيم رضوان، طـ: دار طيبة – الرياض، طـ الأولى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م
٣. الاستشراق الفرنسي والبعثات اليسوعية لقاء الاستشراق والتبشير: د/جواد كاظم النصر الله، د/شهيد كريم الكعبي، بحث منشور في: مجلة دراسات استشراقية، العدد: الرابع، سنة ٢٠١٥م
٤. الاستشراق بين الرفض والقبول في الثقافة العربية: بوزقاو مريم، رسالة دكتوراه – كلية الآداب واللغات، جامعة جيلالي اليابس – الجزائر، ٢٠١٩م
٥. الاستشراق في الميزان: د/ عبدالعظيم الديب، طـ: دار دوِن للنشر والتوزيع – القاهرة، بدون تاريخ
٦. الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: د/مصطفى السباعي، طـ: دار الوراق للنشر والتوزيع – عمان، بدون تاريخ
٧. الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام: د/محمد عبدالله الشرقاوي، طـ: دار البشير للثقافة والعلوم - القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م
٨. الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د/شوقي أبوخليل، طـ: دار الفكر المعاصر – بيروت، لبنان، طـ الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م
٩. الإسلام خواطر وسوانح: هنري دي كاستري، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، قدم له وعلق عليه: د/محمود النجيري، طـ: دار طيبة – القاهرة، طـ الأولى سنة ٢٠٠٨م
١٠. الإسلام كبديل: مراد هوفمان، طـ: مكتبة العبيكان – الرياض، طـ الثانية سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م
١١. الإسلام والمرأة قراءة نسوية في أسس قانون الأحوال الشخصية: مية الرحبي، طـ: الرحبة للنشر والتوزيع – دمشق، سوريا، طـ الأولى سنة ٢٠١٤م
١٢. الإسلام وقضايا الحوار: د/محمود حمدي زقزوق، ترجمة: د/مصطفى ماهر، طـ: مكتبة الشروق الدولية – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، صـ٥٦
١٣. أشعة خاصة بنور الإسلام: ناصر الدين دينيه، طـ: المطبعة السلفية – القاهرة، طـ سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م
١٤. أضواء على الاستشراق: د/محمد عبدالفتاح عليان، طـ: دار البحوث العلمية – الكويت، طـ سنة ١٤٠٠هـ
١٥. افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد: د/عبدالعظيم المطعني، طـ: مكتبة وهبة – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م
١٦. تاريخ الحضارة الإسلامية: فاسيلي بارتلود، ترجمة: حمزة طاهر، تقديم: د/عبدالوهاب عزام، طـ: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م
١٧. التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة: د/أحمد فؤاد باشا، طـ: دار المعارف –القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
١٨. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، ترجمة: الشيخ/حسن خالد، طـ: المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، طـ الثالثة سنة ١٤١١هـ/١٩٩٠م
١٩. جوته والعالم العربي: كاتارينا مومزن، ترجمة: د/عدنان عباس علي، مراجعة: د/عبدالغفار مكاوي، إصدار: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، العدد: ١٩٤، طـ سنة ١٩٩٥م
٢٠. حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا: د/جيفري لانغ، تقديم: مراد هوفمان، ترجمة: د/منذر العبسي، طـ: دار الفكر المعاصر- بيروت، لبنان، دار الفكر – دمشق – سورية، طـ الخامسة سنة ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

٢١. حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، طـ: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، طـ سنة ٢٠١٣م
٢٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: تأليف مجموعة من العلماء، إشراق وتقديم: د/محمود حمدي زقزوق، صادر عن وزارة الأوقاف، طـ: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، طـ سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م
٢٣. حياة محمد: إميل درمنغم، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، طـ: دار العالم العربي، طـ الثالثة سنة ٢٠١٦م
٢٤. الخالدون مآئة أعظمهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، طـ: المكتب المصريا لحديث – القاهرة، بدون تاريخ
٢٥. خلاصة تاريخ العرب: لويس سيديو، ترجمة: محمد أحمد عبدالرازق، مراجعة: علي مبارك، طـ: مؤسسة هنداوي – المملكة المتحدة – بدون تاريخ
٢٦. دائرة المعارف الاستشراقية أضاليل وأباطيل: د/إبراهيم عوض، طـ: مكتبة البلد الأمين – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م
٢٧. الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه: رودي بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، طـ: المركز القومي للترجمة – القاهرة، طـ سنة ٢٠١١م
٢٨. دراسات في حضارة الإسلام: هاملتون جب، تحرير: ستانفورد شو، وليم بولك، ترجمة: د/إحسان عباس، د/محمد يوسف نجم، د/محمود زايد، طـ: دار العلم للملايين، طـ الثالثة سنة ١٩٧٩م
٢٩. الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية: سير توماس أرنولد، ترجمه إلى العربية وعلق عليه: د/حسن إبراهيم حسن، د/عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوي، طـ: مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، طـ الثالثة سنة ١٩٧١م
٣٠. دفاع عن الإسلام: لورا فيشا فاغليري، نقله إلى العربية: منير البعلبكي، طـ: دار العلم للملايين، طـ الخامسة سنة ١٩٨١م
٣١. دور العرب في تكوين الفكر الأوربي: د/عبدالرحمن بدوي، طـ: وكالة المطبوعات الكويتية، ودار القلم – بيروت، طـ الثالثة سنة ١٩٧٩م
٣٢. الرق في الجاهلية والإسلام: إبراهيم محمد حسن الجمل، طـ: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – بدون تاريخ
٣٣. شبهات المستشرقين حول قضايا المرأة في القرآن وسائلها وآثارها والرد عليها: د/عفاف عبدالغفور حميد، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الكويت، سنة النشر: ١٤٣٢هـ/٢٠١١م
٣٤. شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، طـ: دار الجيل – بيروت، دار الآفاق الجديدة – بيروت، طـ الثامنة سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م
٣٥. عبقرية العرب في العلم والفلسفة: د/عمر فروخ، طـ: لمكتبة العلمية – بيروت، طـ الثانية سنة١٩٥٢م
٣٦. العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي: ألدوميلي، نقله إلى العربية: د/عبدالحليم النجار، د/محمد يوسف موسى، قام بمراجعته على الأصل الفرنسي: د/حسين فوزي، طـ: دار القلم – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م
٣٧. الغرب والإسلام: رجب مرسي البنا، طـ: دار المعارف – القاهرة، طـ سنة ١٩٩٧م
٣٨. فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، قدم له وعلق عليه: د/ألبير نصري نادر، طـ: دار الشروق (المطبعة الكاثوليكية) بيروت – لبنان، طـ الثانية سنة ١٩٦٨م
٣٩. فضل الإسلام على الحضارة الغربية: مونتجمري وات، نقله إلى العربية: حسين أحمد أمين، طـ: دار الشروق – القاهرة، بيروت، طـ الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٤٠. قالوا عن الإسلام: د/عماد الدين خليل، طـ: الندوة العالمية للشباب الإسلامي – الرياض، طـ الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م
٤١. القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية: د/محمد محمد أبوليلة، طـ: دار النشر للجامعات – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م
٤٢. القرآن الكريم من منظور غربي: د/عماد الدين خليل، طـ: دار الفرقان – عمان، الأردن، طـ الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م
٤٣. محمد بن عبدالله وآراء مشاهير كتاب الغرب في رسالته ونبوته والإسلام: إدوارد لويس مونتيه، تعريب: عمر أبوالنصر، طـ: المكتبة الأهلية للطبع والترجمة والتأليف والنشر- بيروت، طـ الأولى سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م
٤٤. محمد بين الحقيقة والافتراء في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون: د/محمد محمد أبوليلة، طـ: دار النشر للجامعات – القاهرة، طـ ألأولى سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م
٤٥. محمد في مكة: مونتجمري وات، تعريب: شعبان بركات، طـ: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، بدون تاريخ
٤٦. المستشرقون والقرآن دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه: د/إبراهيم عوض، طـ: مكتبة زهراء الشرق – القاهرة، طـ الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م
٤٧. المستشرقون والقرآن دراسة نقدية لمناهج المستشرقين: عمر لطفي العالم، طـ: مركز دراسات العالم الإسلامي، طـ الأولى سنة ١٩٩١م
٤٨. المستشرقون والقرآن: د/محمد أمين حسن محمد بني عامر، طـ: دار الأمل- الأردن، طـ الأولى سنة ٢٠٠٤م
٤٩. مقدمات العلوم والمناهج: أ/أنور الجندي، طـ: دار الأنصار – القاهرة، طـ سنة ١٩٨٢م
٥٠. المنهج عند المستشرقين: د/عبدالعظيم الديب، بحث منشور في : حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بقطر، العدد: السابع، سنة ١٩٨٩م
٥١. مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي، طـ: دار الشروق – القاهرة، طـ الثالثة سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م
٥٢. موسوعة المستشرقين: د/عبدالرحمن بدوي، طـ: دار العلم للملايين – بيروت، طـ الثالثة سنة ١٩٩٣م
٥٣. موسوعة بيان الإسلام الرد على الافتراءات والشبهات، إعداد: نخبة من كبار العلماء، طـ: دار نهضة مصر – القاهرة، طـ الأولى سنة ٢٠١٢م
٥٤. الموقف الاستشراقي من حق المرأة في الميراث في الإسلام دراسة تحليلية: د/محمد بن سعيد عبدالله السرحاني، بحث منشور في مجلة الإحياء، المجلد: ٢٠، العدد: ٢٦، سنة النشر ٢٠٢٠م
٥٥. موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة: د/عبدالحليم محمود، طـ: دار الرشاد – القاهرة، طـ الثانية سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
٥٦. موقف المستشرقين من التصوف الإسلامي: د/عبدالرحمن تركي، بحث منشور في: مجلة دراسات استشراقية، العدد: السابع عشر، سنة ٢٠١٩م
٥٧. وعود الإسلام: روجيه غارودي، طـ: دار الرقي –بيروت، مكتبة مدبولي – القاهرة، طـ الثانية سنة ١٩٨٥م
٥٨. يوميات ألماني مسلم: مراد ويلفريد هوفمان، ترجمة: د/عباس رشدي العماري، طـ: مركز الأهرام للترجمة والنشر، طـ الأولى سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م

تم بحمد الله

Sources

1. Athar Al-Fikr Al-Estishraqi Fi Al-Mojtama'at Al-Islamia: Dr. Muhammad Khalifa Hassan Ahmed, P: Ain for Human and Social Studies and Research - Cairo, First Edition in 1997 AD
2. Araa' Al-MostashriqienHawl Al-Qur'an Al-KaremWaTafsiruh, study and criticism: Prof. Omar bin Ibrahim Radwan, ed: Dar Taiba - Riyadh, first edition, 1413 AH / 1992 AD
3. Al-Estishraq Al-FrensiWa Al-Bi'that Al-Yasou'iaLiqaa Al-Estishraq Wa Al-Tabshir: Prof. JawadKazem Al-Nasrallah, Prof. ShahidKarim Al-Kaabi, research published in: Journal of Oriental Studies, Issue: Fourth, 2015 AD
4. Al-Estishraq Bayn Al-Rafd Wa Al-Qaboul Fi Al-Thaqafa Al-Arabiya: Bouzagaou Mariam, PhD thesis - Faculty of Arts and Languages, University of Djilali El Yabes - Algeria, 2019
5. Al-Estishraq Fi Al-Mizan: Prof. Abdel Azim El-Deeb, p.: Dawn Publishing and Distribution House - Cairo, undated.
6. Al-EstishraqWa Al-Khalfiya Al-Fikria Lil-Sira' Al-Hadari: Prof. Mahmoud HamdiZaqzouq, P: Dar Al Maaref - Cairo, ed. 1997.
7. Al-Estishraq Wa Al-Mustashriqun Ma Lahum Wa Ma 'Alaihum: Prof. Mustafa Al-Sibai, P: Dar Al-Warraq for Publishing and Distribution - Amman, undated.
8. Al-Estishraq Wa TashkilNazrat Al-Gharb Lil-Islam: Prof. Muhammad Abdullah Al-Sharqawi, P: Dar Al-Bashir for Culture and Science - Cairo, first edition, 1437 AH / 2016 AD
9. Al-Esqat Fi Manahij Al-MustashriqinWa Al-Mobashirin: Prof. Shawqi Abu Khalil, P: Dar Al-Fikr Contemporary - Beirut, Lebanon, first edition, 1419 AH / 1998 AD
10. Al-Islam KhawatirWaSawanih: Henry de Castry, translated by: Ahmed Fathi Zagloul, presented to him and commented on by: Prof. Mahmoud Al-Najiri, P: Dar Taiba - Cairo, first edition in 2008 AD
11. Al-Islam Kabadil: Murad Hoffman, P.: Obeikan Library - Riyadh, second edition, 1418 AH / 1997 AD
12. Al-Islam Wa Al-Mar'a: A Feminist Reading in the Foundations of Personal Status Law: Mayya Al-Rahbi, P.: Al-Rahba for Publishing and Distribution - Damascus, Syria, First Edition in 2014 AD
13. Al-Islam WaQadaya Al-Hewar: Dr. Mahmoud HamdiZaqzouq, translated by: Prof. Mustafa Maher, P: Al-Shorouk International Library - Cairo, first edition, 1425 AH / 2004 AD, p. 56

14. Ashi'aKhasa Bi-Nour Al-Islam: Nasir al-Din Dinah, P: Salafi Press - Cairo, P. 1347 AH / 1929 AD
15. Adwaa 'Ala Al-Estishraq: Prof. Muhammad Abdul-Fattah Alyan, P: Dar Al-Buhuth Al-'Ilmiya - Kuwait, ed. 1400 AH.
16. Eftira'at Al-Mostashriqin 'Ala Al-Islam: Presentation and criticism: Prof. Abdel Azim Al-Muta'ni, P: Wahba Library - Cairo, first edition, 1413 AH / 1993 AD
17. Tariekh Al-Hadara Al-Islamia: VasilyBartlood, translated by: HamzaTaher, presented by: Prof. Abdel WahabAzzam, P: Ain for Human and Social Studies and Research - Cairo, First Edition, 1434 AH / 2013 AD
18. Al-Turath Al-'Elmi Lil-Hadara Al-Islamia WaMakanatuh Fi Tariekh Al-'Elm Wa Al-Hadara: Prof. Ahmed Fouad Pasha, P: Dar Al Maaref - Cairo, Edition. P, 1403 AH / 1983AD
19. Al-Torah Wa Al-Enjil Wa Al-Qur'an Wa Al-'Elm: Maurice Bucaille, translated by: Sheikh Hassan Khaled, P: The Islamic Office, Beirut - Damascus, 3rd Edition, 1411 AH / 1990 AD
20. Gotah Wa Al-'Alam Al-'Arabi: Katharina Momzen, translated by: Prof. Adnan Abbas Ali, Reviewed by: Prof. Abdel GhaffarMakkawi, published by: The World of Knowledge, the National Council for Culture, Arts and Letters - Kuwait, Issue: 194, Edition 1995 AD
21. Hatta Al-MalaaikaTasaal, RehlaEla Al-Islam Fi America: Prof. Jeffrey Lang, Presented by: Murad Hoffman, Translated by: Prof. Munther Al-Absi, t: Dar Al-Fikr Al-Moaser - Beirut, Lebanon, Dar Al-Fikr - Damascus - Syria, Fifth Edition in 1434 AH. /2013AD.
22. Hadarat Al-Arab: Gustave Le Bon, translation: Adel Zuaiter, P: Hindawi Foundation for Education and Culture, edition 2013 AD
23. Haqaaiq Al-Islam Fi MowajahatShubhat Al-Moshakiken: authored by a group of scholars, illumination and presentation: Prof. Mahmoud HamdiZaqzouq, issued by the Ministry of Endowments, P: The Supreme Council for Islamic Affairs - Cairo, Edition 1423 AH / 2002 AD.
24. Hayat Muhammad: Emile Darmangham, translated into Arabic by: Adel Zuaiter, P: Dar Al-Alam Al-Arabi, third edition in 2016 AD.
25. Al-KhaledounMa'ahA'zamhum Muhammad, the Messenger of God, may God's prayers and peace be upon him: Michael Hart, translation: Anis Mansour, P: The Egyptian Office of Hadith - Cairo, undated
26. Khulasat Tariekh Al-Arab: Louis Sedio, Translated by: Muhammad Ahmed Abdel Razek, Reviewed by: Ali Mubarak, p: Hendawi Foundation - United Kingdom - undated
27. Daairat Al-Ma'arif Al-EstishraqiyaAdalilWaAbatil: Prof. Ibrahim Awad, ed.: Al-Balad Al-Amin Library - Cairo, First Edition, 1419 AH / 1998 AD.
28. Al-Derasat Al-Arabia Wa Al-Islamia Fi Al-Jami'at Al-Almaniya, Al-Mostashriqun Al-AlmanMunthTudourNuldkah: Rudy Bart, translated by: Mustafa Maher, P: The

National Center for Translation - Cairo, ed. 2011
29. Derasat Fi Hadarat Al-Islam: Hamilton Gibb, Editing: Stanford Shaw, William Polk, translation: Prof. Ihsan Abbas, Prof. Muhammad Youssef Najm, Prof. Mahmoud Zayed, P: Dar Al-Ilm for Millions, third edition in 1979 AD
30. Al-Da'waEla Al-Islam, Baht Fi Tariekh Nashr Al-'Aqidah Al-Islamia: Sir Thomas Arnold, translated into Arabic and commented on by: Prof. Hassan Ibrahim Hassan, Prof. Abdul MajeedAbdeen, Ismail Al-Nahrawi, P: The Egyptian Renaissance Library - Cairo, third edition in 1971 AD
31. Defa' 'An Al-Islam: Laura VishaVaglieri, translated into Arabic by: Munir Baalbaki, P: Dar Al-Ilm for Millions, Fifth Edition in 1981 A.D.
32. Dawr Al-Arab Fi Takwen Al-Fikr Al-Awrobi: Prof. Abdul Rahman Badawi, P: Kuwait Publications Agency, and Dar Al-Qalam - Beirut, third edition in 1979 AD.
33. Al-Req Fi Al-JahiliyaWa Al-Islam: Ibrahim Muhammad Hassan Al-Jamal, P: Journal of the Islamic University of Madinah - undated
34. Shubhat Al-MostashriqinHawlQadaya Al-Mar'a Fi Al-Qur'an Wasaailha Wa Atharuha Wa Al-Rad 'Alayha: Prof. Afaf Abdel Ghafour Hamid, research published in the Journal of Sharia and Islamic Studies - Kuwait University, publication year: 1432 AH / 2011 AD
35. Shams Al-Arab Tasta' 'Ala Al-Gharb: Sigrid Hoenke, Translated from German: Farouk Beydoun, Kamal Desouki, reviewed and put in footnotes: MarounIssa Al-Khoury, P: Dar Al-Jeel - Beirut, Dar Al-Afaq Al-Jadeeda - Beirut, the eighth edition in 1413 AH / 1993 AD
36. Al-'Ebada FiAl-Islam: Yusuf Al-Qaradawi, P: Wahba Library - Cairo, Twenty-fourth Edition 1416 AH / 1995 AD
37. 'Abqariyat Al-Arab Fi Al-'Elm Wa Al-Falsafa: Dr. Omar Farroukh, p.: The Scientific Library - Beirut, Edition 2, 1952
38. Al-'Elm 'End Al-Arab WaAtharuh Fi Tatwor Al-'Elm Al-'Alami: Al-Dumaili, transferred to Arabic by: Prof. Abdel Halim Al-Najjar, Prof. Muhammad Youssef Musa, revised by the French original: Prof. Hussein Fawzy, P: Dar Al-Qalam - Cairo, first edition in 1381 AH. 1962AD
39. Al-GharbWaAl-Islam: Rajab Morsi al-Banna, P: Dar al-Maarif - Cairo, P. 1997 AD
40. Fasl Al-Maqal Wa Taqrir Ma Bayn Al-Hikma Wa Al-Shari'a Min Al-Etisal: by Judge Abi Al-Waleed Muhammad bin Ahmed bin Rushd, presented to him and commented on by: Prof. Albert Nasri Nader, ed: Dar Al-Shorouk (Catholic Press) Beirut - Lebanon, second edition in 1968 AD
41. Fadl Al-Islam 'Ala Al-Hadara Al-Gharbiya: Montgomery Watt, Translated into Arabic: Hussein Ahmed Amin, P: Dar Al-Shorouk - Cairo, Beirut, first edition 1403 AH / 1983 AD
42. Qalou 'AnAl-Islam: Prof. Imad Al-Din Khalil, P: The World Assembly of Muslim Youth - Riyadh, first edition, 1412 AH / 1992 AD

43. Al-Qur'an Al-Karem Min Al-Manzour Al-Estishraqi, DerasaNaqdiyaTahleleia: An Analytical Critical Study: Prof. Muhammad Muhammad Abu Laila, P: Universities Publishing House - Cairo, the first edition of the year 1423 AH / 2002 AD
44. Al-Qur'an Al-Karem Min ManzourGharbi: Prof. Imad Al-Din Khalil, ed: Dar Al-Furqan - Amman, Jordan, the first edition in 1417 AH / 1996 AD
45. Muhammad bin Abdullah Wa AraaMashahirKuttab Al-Gharb Fi Resalatuh Wa Nobowatuh Wa Al-Islam: Edward Louis Montet, Arabization: Omar Abu al-Nasr, P: The National Library for Printing, Translation, Authoring and Publishing - Beirut, first edition, year 1354 AH / 1935 AD.
46. Muhammad Bayn Al-Haqiqah Wa Al-Eftiraa Fi Al-Rad 'Ala Al-Katib Al-Yahoudi Al-FrensiMaksimRudnsoun: Prof. Muhammad Muhammad Abu Laila, P: Universities Publishing House - Cairo, first edition, 1420 AH / 1999 AD
47. Muhammad Fi Mecca: Montgomery Watt, Arabization: ShaabanBarakat, P: Al-Mataba al-Asriyya, Sidon - Beirut, undated.
48. Al-Mustashriqun Wa Al-Qur'an Derasa Li-TarjamatNafr Min Al-Mustashriqin Al-Frensien Lil-Qur'an Wa AraauhmFeh: Prof. Ibrahim Awad, P: Zahraa al-Sharq Library - Cairo, first edition, 1423 AH / 2003 AD
49. Al-Mustashriqun Wa Al-Qur'an DerasaNaqdiya Li-Manahij Al-Mustashriqin: Omar Lutfi Al-Alam, P: Center for Islamic World Studies, P. 1, 1991 AD.
50. Al-MustashriqunWa Al-Qur'an: Prof. Muhammad Amin Hassan Muhammad Bani Amer, P: Dar Al-Amal - Jordan, first edition in 2004 AD. Moqadimat Al-'Uloum Wa Al-Manahij: Mr. Anwar Al-Jundi, P: Dar Al-Ansar - Cairo, Edition 1982.
51. Al-Manhaj 'End Al-Mustashriqin: Prof. Abdel Azim Al-Deeb, research published in: Yearbook of the College of Sharia and Islamic Studies in Qatar, Issue: Seven, 1989
52. Mowatinoun La Thimioun: FahmyHowaidi, P: Dar Al-Shorouk - Cairo, 3rd edition, 1420 AH / 1999 AD
53. Mawso'at Al-Mostashriqin: Prof. Abdul Rahman Badawi, P: Dar Al-Ilm for Millions - Beirut, third edition in 1993 AD.
54. Mawso'at Bayan Al-Islam: Al-Rad 'Ala Al-EftiraatWa Al-Shobhat, Prepared by: Elite of Senior Scholars, Edition: Dar NahdetMisr - Cairo, First Edition in 2012 AD
55. Al-Mawqif Al-Estishraqi Min Haq Al-Maraa Fi Al-Islam DerasaTahlilia: Prof. Muhammad bin Saeed Abdullah Al-Sarhani, research published in Al-Ihya Journal, Volume: 20, Issue: 26, Publication year 2020 AD.
56. Mawqif Al-Islam Min Al-Fan Wa Al-'Elm Wa Al-Falsafa: Prof. Abdel Halim Mahmoud, P: Dar Al-Rashad - Cairo, second edition, 1424 AH / 2003 AD.
57. Mawqif Al-Mustashriqin Min Al-Tasawof Al-Islami: Prof. Abdul Rahman Turki, research published in: Journal of Oriental Studies, Issue: Seventeen, 2019 AD.
58. Wo'oudAl-Islam: Roger Garaudy, P: Dar Al-Ruqi - Beirut, Madbouly Library - Cairo, second edition in 1985 AD.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع الصفحة
المقدمة ٥٦٣
التمهيد ٥٦٤
المبحث الأول: أهداف الاستشراق ٥٦٧
المبحث الثاني: التواصل الحضاري والنقد الذاتي للاستشراق ٥٧٩
المبحث الثالث: الإسلام والعلم والنقد الذاتي للاستشراق ٥٩٢
المبحث الرابع: المجال العقدي والنقد الذاتي للاستشراق ٦٠٦
المبحث الخامس: المجال التشريعي والنقد الذاتي للاستشراق ٦٣٣
الخاتمة ٦٥٥
أهم المصادر والمراجع ٦٥٧
فهرس الموضوعات ٦٦٤